(رسالة التوحيد)

تأليف

حضرة الاستاذ الفاضل الشيخ محمد عبده المصرى
أحد أعضاء مجلس ادارة الازهر الشريف
والمستشار بمحكمة استئناف مصر الاهلية

(وتطلب من عند السيد عمر الخشاب الكتبى بالسكة الجديدة والازهر)

(الطبعة الاولى)

بالمطبعة الكبرى الاميريه ببولاق مصر المحميه
سنه ١٣١٥

﴿بسم الله الرحمن الرحيم﴾

الحمد لله رب العالمين الرحمن الرحيم مالك يوم الدين إياك نعبد وإياك نستعين اهدنا الصراط المستقيم صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين

﴿وبعد﴾ فلما كنت في بيروت من أعمال سوريا أيام بعدي عن مصر عقب حوادث سنة ١٢٩٩ هجرية دعيت في سنة ١٣٠٣ لتدريس بعض العلوم في المدرسة السلطانية ومنها كان علم التوحيد رأيت أن المختصرات في هذا الفن قد لا تأتي على الغرض من افادة التلامذة والمطولات تعلو عن أفهامهم والمتوسطات ألفت لزمن غير زمانهم فرأيت من الاليق أن أملي عليهم ما هو أمس بحالهم فكانت أمالي مختلفة تتغاير بتغاير طبقتهم أقربها الى كفاية الطالب ما أمليته على الفرقة الاولى في أسلوب لا يصعب تناوله وان لم يهن تداوله تمهيد مقدمات وسير منها الى المطالب من غير نظر الا الى صحة الدليل وان جاء في التعبير على خلاف

ما عهد من هيئة التأليف راميا الى الخلاف من مكان بعيد حتى قد
لا يدركه الا الرجل الرشيد غير أن تلك الامالى لم تحفظ الا فى دفاتر التلامذة
ولم أستبق لنفسى منها شيأ وعرض بعد ذلك ما استقدمنى الى مصر
وكان من تقدير الله أن أشتغل بغير التعليم حتى أتى النسيان على
ما أمليت وذهب عن الخاطر جميع ما ألقيت الى أن خطر لى من مدة
أشهر خاطر العود الى ما تهواه نفسى ويصبو اليه عقلى وحسى وأن
أشغل أوقات فراغى بمدارسة شئ من علم التوحيد علما منى أنه ركن العلم
الشديد فذكرت سابق العمل وتعلق بمثله الامل ولكيلا أنفق من الزمن
ما أنا فى أشد الحاجة اليه فى انشاء ما أرى التعويل عليه عزمت أن
أكتب الى بعض التلامذة ليرسل الىّ ما تلقاه بين يدىّ وذكرت ذلك
لاخى فأخبرنى أنه نسخ ما أملى على الفرقة الاولى فطلبته وقرأته فاذا هو
على مقربة مما أحب قد يحتاج اليه القاصر وربما لا يستغنى عنه
المكاثر على اختصار فيه مقصود ووقوف عند حد من القول محدود
قد سلك فى العقائد مسلك السلف ولم يعب فى سيره آراء الخلف وبعد
عن الخلاف بين المذاهب بعد عليه عن أعاصير المشاغب لكن وجدت
فيه ايجازا فى بعض المواضع قد لا ينفذ منه ذهن المطالع وإغفالا لبعض
ما تمس الحاجة اليه وزيادة عما يجب فى مختصر يشاد أن يقتصر عليه
فبسطت بعض عباراته وحررت ما غمض من مقدماته وزدت ما أغفل
وحذفت ما فضل وتوكلت على الله فى نشره راجيا أن لا يكون فى قصره
ما يحمل على إغفال أمره أو يغض من قدره فما من أحد بأصغر من
أن يعين ولا بأكبر من أن يعان والله وحده ولىّ الامر وهو المستعان

مقـــــدمات

التوحيد علم يبحث فيـه عن وجود الله وما يجب أن يثبت له من صـفاته وما يجوز أن يوصف به وما يجب أن ينفى عنه وعن الرسل لاثبات رسالتهم وما يجب أن يكونوا عليه وما يجوز أن ينسب اليهم وما يمتنع أن يلحق بهم أصـل معنى التوحيد اعتقاد أن الله واحد لا شريك له وسمى هذا العلم به تسمية له بأهم أجزائه وهو اثبات الوحدة لله فى الذات والفعل فى خلقة الاكوان وأنه وحده مرجع كل كون ومنتهى كل قصد وهـذا المطلب كان الغاية العظمى من بعثة النبى صلى الله عليه وسـلم كما تشهد به آيات الكتاب العزيز وسيأتى بيانه وقد يسمى علم الكلام إما لان أشهر مسئلة وقع فيها الخـلاف بين علماء القرون الاولى هى أن كلام الله المتلو حادث أو قديم وإما لان مبناه الدليل العقلى وأثره يظهر من كل متكلم فى كلامـه وقلما يرجع فيـه الى النقل اللهم الا بعـد تقرير الاصول الاولية والاستدلال بما هو أشبه بالفرع عنها وان كان أصـلا لما يأتى بعدها وإما لانه فى بيان طرق الاستدلال على أصول الدين أشـبه بالمنطق فى تبيينه مسالك الحجة فى علوم أهل النظر وأبدل المنطق بالـكلام للتفرقة بينهما

هـذا النوع من العـلم علم تقرير العقائد وبيان ما جاء فى النبوات كان معروفا عند الامم قبل الاسـلام ففى كل أمة كان القائمون بأمر الدين يعملون لحفظه وتأييده وكان البيان من أول وسائلهم الى ذلك لـكنهم كانوا قلما يلحون فى بيانهم نحو الدليل العقلى وبناء آرائهم وعقائدهم على

مافى طبيعة الوجود أو مايشتمل عليه نظام الكون بل كانت منازع العقول فى العلم ومضارب الدين فى الالزام بالعقائد وتقريبها من مشاعر القلوب على طرفى نقيض وكثيرا ما صرح الدين على لسان رؤسائه أنه عدو العقل نتائجه ومقدماته فكان جل مافى علوم الكلام تأويل وتفسير وادهاش بالمعجزات أو إلهاء بالخيالات يعلم ذلك من له إلمام بأحوال الامم قبل البعثة الاسلامية

جاء القرآن فانتهج بالدين منهجا لم يقم عليه ماسبقه من الكتب المقدسة منهجا يمكن لاهل الزمن الذى أنزل فيه ولمن يأتى بعدهم أن يقوموا عليه فترك الاستدلال على نبوة النبى صلى الله عليه وسلم بما عهد الاستدلال به على النبوات السابقة وحصر الدليل فى حال النبى مع نزول الكتاب عليه فى شأن من البلاغة يعجز البلغاء عن محاكاته فيه ولو فى مثل أقصر سورة منه وتناول من مقام الالوهية ما أذن الله وما أوجب علينا أن نعلم لكن لم يطالب التسليم به لمجرد أنه جاء بحكايته ولكنه ادعى وبرهن وحكى مذاهب المخالفين وكر عليها بالحجة وخاطب العقل واستنهض الفكر وعرض نظام الأكوان ومافيها من الاحكام والاتقان على أنظار العقول وطالبها بالامعان فيها لتصل بذلك الى اليقين بصحة ما ادعاه ودعا اليه حتى فى سياق قصص أحوال السابقين كان يقرر أن للخليقة سنة لا تتغير وقاعدة لا تتبدل فقال (سنة الله التى قد خلت من قبل ولن تجد لسنة الله تبديلا) وصرح (ان الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم) واعتضد بالدليل حتى فى باب الادب فقال (ادفع بالتى هى أحسن فاذا الذى بينك وبينه عداوة كأنه ولى حميم) وتآخى العقل والدين لاول مرة فى كتاب

مقدس على لسان نبي مرسل بتصريح لا يقبل التأويل وتقرر بين المسلمين كافة الا من لا ثقة بعقله ولا بدينه أن من قضايا الدين ما لا يمكن الاعتقاد به الا من طريق العقل كالعلم بوجود الله وبقدرته على ارسال الرسل وعلمه بما يوحى به اليهم وارادته لاختصاصهم برسالته وما يتبع ذلك مما يتوقف عليه فهم معنى الرسالة وكالتصديق بالرسالة نفسها كما أجمعوا على أن الدين ان جاء بشيء قد يعلو على الفهم فلا يمكن أن يأتي بما يستحيل عند العقل

جاء القرآن يصف الله بصفات وان كانت أقرب الى التنزيه مما وصف به في مخاطبات الاجيال السابقة فمن صفات البشر ما يشاركها في الاسم أو في الجنس كالقدرة والاختيار والسمع والبصر وعزا اليه أمورا يوجد ما يشبهها في الانسان كالاستواء على العرش وكالوجه واليدين ثم أفاض في القضاء السابق وفي الاختيار الممنوح للانسان وجادل الغالين من أهل المذهبين ثم جاء بالوعد والوعيد على الحسنات والسيآت ووكل الامر في الثواب والعقاب الى مشيئته وأمثال ذلك مما لا حاجة الى بيانه في هذه المقدمة فاعتبار حكم العقل مع ورود أمثال هذه المتشابهات في النقل فسح مجالا للناظرين خصوصا ودعوة الدين الى الفكر في المخلوقات لم تكن محدودة بحد ولا مشروطة بشرط للعلم بأن كل نظر صحيح فهو مؤد الى الاعتقاد بالله على ما وصفه بلا غلو في التجريد ولا دنو من التحديد

مضى زمن النبي صلى الله عليه وسلم وهو المرجع في الحيرة والسراج في ظلمات الشبهة وقضى الخليفتان بعده ما قدر لهما من العمر في مدافعة الاعداء وجمع كلمة الاولياء ولم يكن للناس من الفراغ ما يخلون فيه مع

عقولهم ليبتلوها بالبحث في مباني عقائدهم وما كان من اختلاف قليل ردّ اليهما وقضى الامر فيه بحكمهما بعد استشارة من جاورهما من أهل البصر بالدين ان كانت حاجة الى الاستشارة وأغلب الخلاف كان في فروع الاحكام لا في أصول العقائد ثم كان الناس في الزمنين ينهمون اشارات الكتاب ونصوصه يعتقدون بالتنزيه ويفوّضون فيما يوهم التشبيه ويرون أن له معنى غير ما يفهمه ظاهر اللفظ

كان الامر على ذلك الى أن حدث ما حدث في عهد الخليفة الثالث وأفضى الى قتله هوى بتلك الاحداث ركن عظيم من هيكل الخلافة واصطدم الاسلام بأهله صدمة زحزحتهم عن الطريق التى استقاموا عليها وبقى القرآن قائما على صراطه (انا نحن نزلنا الذكر وانا له لحافظون) وفتح للناس باب التعدّى الحدود التى حدها الدين فقد قتل الخليفة بدون حكم شرعى وأشعر الامر قلوب العامة أن شهوات تلاعبت بالعقول في أنفس من لم يملك الايمان قلوبهم وغلب الغضب على تشريس الغالين في دينهم وتغلب هؤلاء وأولئك على أهل الاصالة منهم فقضيت أمور على غير ما يحبون

وكان من العاملين في تلك الفتنة عبد الله بن سبا يهودى أسلم وغلا في حب على كرم الله وجهه حتى زعم أن الله حل فيه وأخذ يدعو الى أنه الاحق بالخلافة وطعن على عثمان فنفاه الى مصر فوجد فيها أعوانا على فتنته الى أن كان ما كان مما ذكرنا ثم ظهر بمذهبه في عهد على فنفاه الى المدائن وكان رأيه جرثومة لما حدث من مذاهب الغلاة من بعده

توالت الاحداث بعد ذلك ونقض بعض المبايعين للخليفة الرابع ما عقدوا

وكانت حروب بين المسلمين انتهى فيها أمر السلطان الى الامويين غير أن بناء الجماعة قد انصدع وانفصمت عرى الوحدة بينهم وتفرقت بهم المذاهب فى الخلافة وأخذ الاحزاب فى تأييد آرائهم كل ينصر رأيه على رأى خصمه بالقول والعمل وكانت نشأة الاختراع فى الرواية والتأويل وغلا كل قبيل فافترق الناس الى شيعة وخوارج ومعتدلين وغلا الخوارج فى عهد مروان الاول فكفروا من عداهم ثم استمر عنادهم وطلبهم لحكومة أشبه بالجمهوريه وتكفيرهم لمن خالفهم زمنا طويلا الى أن تضعضع أمرهم على يد المهلب بن أبى صفرة وانتشرت فلولهم فى بلاد المغرب فأشعلوا فيها الفتن وبقيت منهم بقية الى اليوم فى أطراف أفريقيا وناحية من جزيرة العرب وغلا بعض الشيعة فرفعوا عليا أو بعض ذريته الى مقام الالوهية أو ما يقرب منه وتبع ذلك خلاف فى كثير من العقائد

غير أن شيأ من ذلك لم يقف فى سبيل الدعوة الاسلامية ولم يحجب ضياء القرآن عن الاقطار التى انتشر فيها النزاع وكان الناس يدخلون فيه أفواجا من الفرس والسوريين ومن جاورهم والمصريين والافريقيين ومن يليهم واستراح جمهور عظيم من العمل فى الدفاع عن سلطان الاسلام وآن لهم أن يشتغلوا فى أصول العقائد والاحكام بما هداهم اليه سير القرآن اشتغالا يحرص فيه على النقل ولا يهمل فيه اعتبار العقل ولا يغض فيه من نظر الفكر ووجد من أهل الاخلاص من انتدب نفسه لنشر العلم والقيام بفريضة التعليم ومن أشهرهم الحسن البصرى فكان له مجلس للتعليم والافادة فى البصرة يجتمع اليه الطالبون من كل

صوب وتفحص فيه المسائل من كل نوع وكان قد التحف بالاسلام ولم يتبطنه أناس من كل ملة دخلوه حاملين لما كان عندهم راغبين أن يصلوا بينه وبين ماوجدوه فثارت الشبهات بعدما هبت على الناس أعاصير الفتن واعتمد كل ناظر على ماصرح به القرآن من اطلاق العنان للفكر وشارك الدخلاء من حق لهم السبق من العرفاء وبدت رؤس المشاقين تعلو بين المسلمين وكانت أول مسئلة ظهر الخلاف فيها مسئلة الاختيار واستقلال الانسان بارادته وأفعاله الاختيارية ومسئلة من ارتكب الكبيرة ولم يتب اختلف فيها واصل بن عطاء مع أستاذه الحسن البصري واعتزله يعلم أصولا لم يكن أخذها عنه غير أن كثيرا من السلف ومنهم الحسن على قول كان على رأى أن العبد مختار فى أعماله الصادرة عن علمه وارادته وقام ينازع هؤلاء أهل الجبر الذين ذهبوا الى أن الانسان فى عمله الارادى كأعضاء الشجرة في حركتها الاضطرارية كل ذلك وأرباب السلطان من بنى مروان لايحفلون بالامر ولايعنون برد الناس الى أصل يرجعهم على أمر يشملهم ثم يذهب كل الى ماشاء ثم لم يقف الخلاف عند المسئلتين السابقتين بل امتد الى اثبات صفات المعانى للذات الالهية أونفيها عنها والى تقرير سلطة العقل فى معرفة جميع الاحكام الدينية حتى ما كان منها شرعية أو عبادات (غلوا فى تأييد سلطة القرآن) أوتخصيص تلك السلطة بالاصول الاولى على ماسبق بيانه ثم غالى آخرون وسموا الناكثين فمحوها بالمرة وخالفوا فى ذلك طريقة الكتاب عنادا للاولين وكانت الاراء فى الخلفاء والخلافة تسير مع الاراء فى العقائد كأنها مبنى من مبانى الاعتقاد الاسلامى

تفرقت السبل باتباع واصل وتناولوا من كتب اليونان ما لاق بعقولهم
وظنوا من التقوى أن تؤيد العقائد بما أثبته العلم بدون تفرقة بين ما كان
منه راجعا الى أوليات العقل وما كان سرابا فى نظر الوهم فخلطوا بمعارف
الدين ما لا ينطبق حتى على أصل من أصول النظر ولجوا فى ذلك حتى صارت
شيعهم تعد بالعشرات أيدتهم الدولة العباسية وهى فى ريعان القوة
فغلب رأيهم وابتدأ علماؤهم يؤلفون الكتب فأخذ المتمسكون بمذاهب
السلف يناضلونهم معتصمين بقوة اليقين وان لم يكن لهم عضد من
الحاكمين

عرف الاولون من العباسيين ما كان من الفرس فى اقامة دولتهم وقلب دولة
الامويين واعتمدوا على طلب الانصار فيهم وأعدوا لهم منصات الرفعة
بين وزرائهم وحواشيهم فعلا أمر كثير منهم وهم ليسوا من الدين فى شئ
وكان فيهم المانوية والمزدية ومن لا دين له وغير أولئك من الفرق الفارسية
فأخذوا ينفثون من أفكارهم ويشيرون بجالهم وعقالهم الى من يرى
مثل آرائهم أن يتمذهبوا بها فظهر الالحاد وتطاعت رؤس الزندقة حتى صدر
أمر المنصور بوضع كتب لكشف شبهاتهم وابطال مزاعمهم

فيما حوالى هذا العهد كانت نشأة هذا العلم نبتا لم يتكامل نموه وبناء لم
يتشامخ علوه وبدأ كما انتهى مشوبا بمبادئ النظر فى الكائنات جريا على
ما سنه القرآن من ذلك وحدثت فتنة القول بخلق القرآن أو أزليته
وانتصر للأول جمهور من خلفاء العباسيين وأمسك عن القول أو صرح
بالازلية عدد غفير من المتمسكين بظواهر الكتاب والسنة أو المتعففين عن
النطق بما فيه مجاراة البدعة وأهين فى ذلك رجال من أهل العلم والتقوى

وسفكت فيه دماء بغير حق وهكذا تعدى القوم حدود الدين باسم الدين
على هذا كان النزاع بين ما تطرف من نظر العقل وما توسط أو غلا من
الاسترسال بظاهر الشرع والكل على وفاق على أن الاحكام الدينية
واجبة الاتباع ما تعلق منها بالعبادات والمعاملات وجب الوقوف عنده
وما مس بواطن القلوب وملكات النفوس فرض التروض عليه وكان وراء
هؤلاء قوم من أهل الحلول أو الدهريين طلبوا أن يحملوا القرآن على
ما جاءوه عند التحاقهم بالاسلام وأفرطوا في التأويل وحولوا كل عمل ظاهر
الحس باطن وفسروا الكتاب بما يبعد عن تناول الخطاب بعد الخطا
عن الصواب وعرفوا بالباطنية أو الاسماعيلية ولهم أسماء أخر تعرف
في التاريخ فكانت مذاهبهم غائلة الدين وزلزال اليقين وكانت لهم فتن
معروفة وحوادث مشهورة

مع اتفاق السلف وخصومهم في مقارعة هؤلاء الزنادقة وأشياعهم كان
أمر الخلاف بينهم جللا وكانت الايام بينهم دولا ولا يمنع ذلك من أخذ
بعضهم عن بعض واستفادة كل فريق من صاحبه الى أن جاء الشيخ أبو
الحسن الاشعري في أوائل القرن الرابع وسلك مسلكه المعروف وسطا
بين موقف السلف وتطرف من خالفهم وأخذ يقرر العقائد على أصول
النظر وارتاب في أمره الاولون وطعن كثير منهم على عقيدته وكفره
الحنابلة واستباحوا دمه ونصره جماعة من أكابر العلماء كامام الحرمين
والاسفرايني وأبي بكر الباقلاني وغيرهم وسموا رأيه مذهب أهل السنة
والجماعة فانهزم من بين أيدي هؤلاء الافاضل قوتان عظيمتان قوة
الواقفين عند الظواهر وقوة الغالين في الجري خلف ما تزينه الخواطر

ولم يبق من أولئك وهؤلاء بعد نحو قرنين إلا فئات قليلة فى أطراف البلاد الاسلامية

غير أن الناصرين لمذهب الاشعرى بعد تقريرهم ما بنى رأيه عليه من نواميس الكون أوجبوا على المعتقد أن يوقن بتلك المقدمات ونتائجها كما يجب عليه اليقين بما تؤدى اليه من عقائد الايمان ذهابا منهم الى أن عدم الدليل يؤدى الى عدم المدلول ومضى الامر على ذلك الى أن جاء الامام الغزالى والامام الرازى ومن أخذ مأخذهم فخالفوهم فى ذلك وقرروا أن دليلا واحدا أو أدلة كثيرة قد يظهر بطلانها ولكن قد يستدل على المطلوب بما هو أقوى منها فلا وجه للحجر فى الاستدلال

أما مذاهب الفلسفة فكانت تستمد آراءها من الفكر المحض ولم يكن من هم أهل النظر من الفلاسفة الا تحصيل العلم والوفاء بما يدفع اليه رغبة العقل من كشف مجهول أو استكناه معقول وكان يمكنهم أن يبلغوا من مطالبهم ما شاؤا وكان الجمهور من أهل الدين يكنفهم بحمايته ويدع لهم من [illegible] لا [illegible] ينبغى [illegible] الصناعة وتقرره أرباب النظام البشرى بما يكشفون من ستائر الاسرار المكنونة فى ضمائر الكون مما أباح الله لنا أن نتناوله بعقولنا وأفكارنا فى قوله (خلق لكم ما فى الارض جميعا) اذ لم يستثن من ذلك ظاهرا ولا خفيا وما كان اقل من عقلاء المسلمين ليأخذ عليهم الطريق أو يضع العقاب فى سبيل ما يسددوا اليه بعد ما رفع القرآن من شأن العقل وما وضعه من المكانة بحيث ينتهى اليه أمر السعادة والتمييز بين الحق والباطل والضار والنافع وبعد ما صح من قوله عليه السلام أنتم أعلم بشؤن دنياكم وبعد

ما

ماسنّ لنا فى غزوة بدر من سنة الاخذ بما اصدق من التجارب وصح من الآراء

لكن يظهر أن أمرين غلبا على غالبهم الاول الاعجاب بما نقل اليهم عن فلاسفة اليونان خصوصا عن ارسطو وافلاطون ووجدان اللذة فى تقليدهما البادئ الامر والثانى روح الوقت وهو أشأم الامرين زجوا بأنفسهم فى المنازعات التى كانت قائمة بين أهل النظر فى الدين واصطدموا بعاومنهم فى قلة عددهم مع ما انطبعت عليه نفوس الكافة فمال حماة العقائد عليهم وجاء الغزالى ومن على طريقته فأخذوا جميع ما وجد فى كتب الفلاسفة مما يتعلق بالالهيات وما يتصل بها من الامور العامة أو أحكام الجواهر والاعراض ومذاهبهم فى المادة وتركيب الاجسام وجميع ما ظنه المشتغلون بالكلام يمس شيأ من مبانى الدين واشتدوا فى نقده وبالغ المتأخرون منهم فى تأثرهم حتى كاد يصل بهم السير الى ماوراء الاعتدال فسقطت منزلتهم من النفوس ونبذتهم العامة ولم تحفل بهم الخاصة وذهب الزمان بما كان ينتظر العالم الاسلامى من سعيهم

هذا هو السبب فى خلط مسائل الكلام بمذاهب الفلسفة فى كتب المتأخرين كما تراه فى كتب البيضاوى والعضد وغيرهم وجمع علوم نظرية شتى وجعلها جميعا علما واحدا والذهاب بمقدماته ومباحثه الى حد هو أقرب الى التقليد من النظر فوقف العلم عن التقدم

ثم جاءت فتن طلاب الملك من الاجيال المختلفة وتغلب الجهال على الامر وفتكوا بما بقى من أثر العلم النظرى النابع من عيون الدين الاسلامى فانحرفت الطريق بسالكيها ولم يعد بين الناظرين فى كتب السابقين إلا

تحاور فى الالفاظ وتناظر فى الاساليب على أن ذلك فى قليل من الكتب اختارها الضعف وفضلها القصور ثم انتشرت الفوضى العقلية بين المسلمين تحت حماية الجهلة من ساستهم فجاء قوم ظنوا فى أنفسهم مالم يعترف به العلم لهم فوضعوا مالم يعد للاسلام قبل باحتماله غير أنهم وجدوا من نقص المعارف أنصارا ومن البعد عن ينابيع الدين أعوانا فشردوا بالعقول عن مواطنها وتحكموا فى التضليل والتكفير وغلوا فى ذلك حتى قلدوا بعض من سبق من الامم فى دعوى العداوة بين العلم والدين وقالوا لما تصف ألسنتهم الكذب هذا حلال وهذا حرام وهذا كفر وهذا اسلام والدين من وراء ما يتوهمون والله جل شأنه فوق ما يظنون وما يصفون ولكن ماذا أصاب العامة فى عقائدهم ومصادر أعمالهم من أنفسهم بعد طول الخبط وكثرة الخلط شر عظيم وخطب عميم

هذا مجمل من تاريخ هذا العلم يبين كيف أسس على قواعد من الكتاب المبين وكيف عبثت به فى نهاية أمره أيدى المفرقين حتى خرجوا به عن قصده وبعدوا به عن حده

والذى علينا اعتقاده أن الدين الاسلامى دين توحيد فى العقائد لا دين تفريق فى القواعد العقل من أشد أعوانه والنقل من أقوى أركانه وما وراء ذلك فنزغات شياطين أو شهوات سلاطين والقرآن شاهد على كل بعمله قاض عليه فى صوابه وخطائه

الغاية من هذا العلم القيام بفرض مجمع عليه وهو معرفة الله تعالى بصفاته الواجب ثبوتها له مع تنزيهه عما يستحيل اتصافه به والتصديق برسله على وجه اليقين الذى تطمئن به النفس اعتمادا على الدليل لا استرسالا

مع التقليد حسبما أرشدنا اليه الكتاب فقد أمر بالنظر واستعمال العقل فيما بين أيدينا من ظواهر الكون وما يمكن النفوذ اليه من دقائقه تحصيلا لليقين بما هدانا اليه ونهانا عن التقليد بما حكى عن أحوال الامم فى الاخذ بما عليه آباؤهم وتبشيع ما كانوا عليه من ذلك واستتباعه لهدم معتقداتهم وانمحاء وجودهم الملى وحق ما قال فان التقليد كما يكون فى الحق يأتى فى الباطل وكما يكون فى النافع يحصل فى الضار فهو مضلة يعذر فيها الحيوان ولا تجمل بحال الانسان

أقسام المعلوم

يقسمون المعلوم الى ثلاثة أقسام ممكن لذاته وواجب لذاته ومستحيل لذاته ويعرفون المستحيل بما عدمه لذاته من حيث هى أما الواجب فهو ما كان وجوده لذاته من حيث هى والممكن ما لا وجود له ولا عدم من ذاته وانما يوجد لوجود ويعدم لعدم سبب وجوده وقد يعرض له الوجوب والاستحالة لغيره واطلاق المعلوم على المستحيل ضرب من المجاز فان المعلوم حقيقة لا بد أن يكون له كون فى الواقع ينطبق عليه العلم والمستحيل ليس من هذا القبيل كما تراه فى أحكامه وإنما المراد ما يمكن الحكم عليه بأن فى صورة يخترعها العقل ليتوصل بها الى الحكاية عنه

حكم المستحيل

وحكم المستحيل لذاته أن لا يطرأ عليه وجود فان العدم من لوازم ماهيته من حيث هى فلو طرأ الوجود عليه لسلب لازم الماهية من حيث هى

عنها وهو يؤدى الى سلب الماهية عن نفسها بالبداهة فالمستحيل
لا يوجد فهو ليس بموجود قطعا بل لا يمكن العقل أن يتصور له ماهية
كائنة كما أشرنا اليه فهو ليس بموجود حتى ولا فى الذهن

أحكام الممكن

من أحكام الممكن لذاته أن لا يوجد الا بسبب وأن لا ينعدم الا بسبب
وذلك لانه لا واحد من الامرين له لذاته فنسبتهما الى ذاته على السواء فان
ثبت له أحدهما بلا سبب لزم رجحان أحد المتساويين على الآخر بلا مرجح
وهو محال بالبداهة

ومن أحكامه أنه ان وجد يكون حادثا لانه قد ثبت أنه لا يوجد الا بسبب
فاما أن يتقدم وجوده على وجود سببه أو يقارنه أو يكون بعده والاول
باطل والا لزم تقدم المحتاج على ما اليه الحاجة وهو ابطال لمعنى الحاجة
وقد سبق الاستدلال على ثبوتها فيؤدى الى خلاف المفروض والثانى
كذب إذ لو تساويهما فى رتبة الوجود فيكون الحكم على أحدهما بأنه
أثر والثانى مؤثر ترجيحا بلا مرجح وهو مما لا يسوغه العقل على أن علية
أحدهما ومعلولية الآخر رجحان بلا مرجح وهو محال بالبداهة فتعين
الثالث وهو أن يكون وجوده بعد وجود سببه فيكون مسبوقا بالعدم
فى مرتبة وجود السبب فيكون حادثا اذ الحادث ما سبق وجوده بالعدم
فقد تبين أن الممكن حادث

الممكن لا يحتاج فى عدمه الى سبب وجودى لان العدم سلب والسلب
لا يحتاج الى ايجاد بداهة فيكون عدم الممكن لعدم التأثير فيه أى عدم

ما كان سببا في بقائه أما في وجوده فيحتاج الى سبب وجودي ضرورة لان العدم لا يكون مصدرا للوجود فالموجود إن حدث فانما يكون حدوثه بايجاد وذلك كله بديهي

كما يحتاج الممكن للسبب في وجوده ابتداء يحتاج اليه في البقاء لما بينا أن ذات الممكن لا تقتضي الوجود ولا يرجح لها الوجود عن العدم الا للسبب الخارجي الوجودي فذلك لازم من لوازم ماهية الامكان لا يفارقها من حيث هي فلا يكون للممكن حالة يقتضي فيها الوجود لذاته فيكون في جميع أحواله محتاجا الى مرجح الوجود عن العدم لا فرق بين الابتداء والبقاء

معنى السبب على ما ذكرنا منشأ الايجاد ومعطي الوجود وهو الذي يعبر عنه بالموجد وبالعلة الموجدة وبالعلة الفاعلة وبالفاعل الحقيقي ونحو ذلك من العبارات التي تختلف مبانيها ولا تتباين معانيها وقد يطلق السبب أحيانا على الشرط أو المعد الذي يهيئ الممكن لقبول الايجاد من موجده وهو بهذا المعنى قد يحتاج اليه في الابتداء ويستغنى عنه في البقاء وقد تكون الحاجة الى وجوده ثم عدمه ومن هذا القبيل وجود البناء فانه شرط في وجود البيت وقد يموت البناء ويبقى بناؤه وليس البناء واهب الوجود للبيت وانما حركات يديه وحركات ذهنه وأطوار ارادته شرط لوجود البيت على هيئته الخاصة به وبالجملة فيوجد فرق بين توقف الممكن على شيء وبين استفادته الوجود من شيء فالتوقف قد يكون على وجود ثم عدم كما في توقف الخطوة الثانية على الاولى فان الاولى ليست واهبة الوجود للثانية والا وجب وجودها معها مع أن الثانية لا توجد

الا اذا انعدمت الاولى أما استفادة الوجود فتقتضى سبق مالك الوجود يعطيه للمستفيد منه وأن يكون وجود المستفيد مستمدا من وجود الواهب لا يقوم الا به فلا يستقل بنفسه دونه فى حال من الاحوال

الممكن موجود قطعا

نرى أشياء توجد بعد أن لم تكن وأخرى تنعدم بعد أن كانت كاشخاص النباتات والحيوانات فهذه الكائنات إما مستحيلة أو واجبة أو ممكنة لا سبيل الى الاول لان المستحيل لا يطرأ عليه الوجود ولا الى الثانى لان الواجب له الوجود من ذاته وما بالذات لا يزول فلا يطرأ عليه العدم ولا يسبقه كما سيجىء فى أحكام الواجب فهى ممكنة فالممكن موجود قطعا

وجود الممكن يقتضى بالضرورة وجود الواجب

جملة الممكنات الموجودة ممكنة بداهة وكل ممكن محتاج الى سبب يعطيه الوجود فجملة الممكنات الموجودة محتاجة بتمامها الى موجد لها فاما أن يكون عينها وهو محال لاستلزامه تقدم الشئ على نفسه وإما أن يكون جزأها وهو محال لاستلزامه أن يكون الشئ سببا لنفسه ولما سبقه ان لم يكن الاول ولنفسه فقط ان فرض أول وبطلانه ظاهر فوجب أن يكون السبب وراء جملة الممكنات والموجود الذى ليس بممكن هو الواجب اذ ليس وراء الممكن الا المستحيل والواجب والمستحيل لا يوجد فيبقى الواجب فثبت أن الممكنات الموجودة موجدا واجب الوجود

وأيضا الممكنات الموجودة سواء كانت متناهيـة أو غـير متناهيـة قائمة بوجود فذلك الوجود إما أن يكون مصـدره ذات الامكان وماهيات الممكنات وهو باطل لما سبق فى أحكام الممكن من أنه لاشئ من الماهيات الممكنة بمقتض للوجود فتعين أن يكون مصـدره سواها وهو الواجب بالضرورة

أحكام الواجب

القـدم والبقاء ونفى التركيب

من أحكام الواجب أن يكون قديما أزليا لانه لو لم يكن كذلك لكان حادثا والحادث ما سبق وجوده بالعدم فيكون وجوده مسـبوقا بعدم وكل ماسبق بالعدم يحتاج الى علة تعطيه الوجود وإلا لزم رجحان المرجوح بلا سبب وهو محال فلو لم يكن الواجب قديما لكان محتاجا فى وجوده الى موجـد غـيره وقد سبق أن الواجب ما كان وجوده لذاته فلا يكون مافرض واجبا واجبا وهو تناقض محال ومن أحكامه أن لا يطرأ عليه عدم وإلا لزم سلب ما هو للذات عنها وهو يعود الى سلب الشئ عن نفسـه وهو محال بالبداهة

من أحكامه أن لا يكون مركبا اذ لو تركب لتقدم وجود كل جزء من أجزائه على وجود جملته التى هى ذاته وكل جزء من أجزائه غـير ذاته بالضرورة فيكون وجود جملته محتاجا الى وجود غيره وقد سبق أن الواجب ما كان وجوده لذاته ولانه لو تركب لكان الحكم له بالوجود موقوفا عـلى الحكم

بوجود أجزائه وقد قلنا إنه له لذاته من حيث هي ذاته ولانه لا مرجح لأن يكون الوجوب له دون كل جزء من أجزائه بل يكون الوجوب لها أرجح فتكون هي الواجبة دونه

نفى التركيب فى الواجب شامل لما يسمونه حقيقة عقلية أو خارجية فلا يمكن للعقل أن يحاكى ذات الواجب بمركب فان الاجزاء العقلية لابد لها من منشا انتزاع فى الخارج فلو تركبت الحقيقة العقلية لكانت الحقيقة مركبة فى الخارج وإلا كان ما فرض حقيقة عقلية اعتبارا كاذب الصدق لا حقيقة

كما لا يكون الواجب مركبا لا يكون قابلا للقسمة فى أحد الامتدادات الثلاث أى لا يكون له امتداد لانه لو قبل القسمة لعاد بها الى غير وجوده الاول وصار الى وجودات متعددة وهى وجودات الاجزاء الحاصلة من القسمة فيكون ذلك قبولا للعدم أو تركبا وكلاهما محال كما سبق

الحياة

معنى الوجود وان كان بديهيا عند العقل ولكنه يتمثل له بالظهور ثم الثبات والاستقرار، وكمال الوجود وقوته بكمال هذا المعنى وقوته بالبداهة

كل مرتبة من مراتب الوجود تستتبع بالضرورة من الصفات الوجودية ما هو كمال لتلك المرتبة فى المعنى السابق ذكره وإلا كان الوجود لمرتبة سواها وقد فرض لها ما يجلى للنفس من مثل الوجود لا ينحصر وأكمل مثال فى أى مراتبه ما كان مقرونا بالنظام والسكون على وجه ليس فيه

خلل ولا تشويش فان كان ذلك النظام بحيث يستتبع وجودا مستمرا وان في النوع كان أدل على كمال المعنى الوجودي في صاحب المثال

فان تجلت النفس مرتبة من مراتب الوجود على أن تكون مصدرا لكل نظام كان ذلك عنوانا على أنها أكمل المراتب وأعلاها وأرفعها وأقواها

وجود الواجب هو مصدر كل وجود ممكن كما قلنا وظهر بالبرهان القاطع فهو بحكم ذلك أقوى الوجودات وأعلاها فهو يستتبع من الصفات الوجودية ما يلائم تلك المرتبة العليا وكل ما تصوره العقل كمالا في الوجود من حيث ما يحيط به من معنى الثبات والاستقرار والظهور وأمكن أن يكون له وجب أن يثبت له وكونه مصدر النظام وتصريف الاعمال على وجه لا اضطراب فيه يعد من كمال الوجود كما ذكرنا فيجب أن يكون ذلك ثابتا فالوجود الواجب يستتبع من الصفات الوجودية التي تقتضيها هذه المرتبة ما يمكن أن يكون له

فمما يجب أن يكون له صفة الحياة وهي صفة تستتبع العلم والارادة وذلك أن الحياة مما يعتبر كمالا للوجود بداهة فان الحياة مع ما يتبعها مصدر النظام بناموس الحكمة وهي في أي مراتبها مبدأ الظهور والاستقرار في تلك المرتبة فهي كمال وجودي ويمكن أن يتصف بها الواجب وكل كمال وجودي يمكن أن يتصف به وجب أن يثبت له فالواجب الوجود حي وان باينت حياته حياة الممكنات فيما هو كمال الوجود انما هو مبدأ العلم والارادة ولو لم يثبت له هذه الصفة لكان في الممكنات ما هو أكمل منه وجودا وقد تقدم أنه أعلى الموجودات وأكملها فيه

والواجب هو واهب الوجود وما يتبعه فكيف لو كان فاقدا للحياة يعطيها فالحياة له كما أنه مصدرها

العلم

ومما يجب له صفة العلم ويراد به ما به انكشاف شئ عند من ثبتت له تلك الصفة أى مصدر ذلك الانكشاف منه لان العلم من الصفات الوجودية التى تعد كمالا فى الوجود ويمكن أن تكون للواجب وكل ما كان كذلك وجب أن يثبت له فواجب الوجود عالم

ثم البداهة قاضية بأن العلم كمال فى الموجودات الممكنة ومن الممكنات من هو عالم فلو لم يكن الواجب عالما لكان فى الموجودات الممكنة ما هو أكمل من الموجود الواجب وهو محال كما قدمنا ثم هو واهب العلم فى عالم الامكان ولا يعقل أن مصدر العلم يفقده

علم الواجب من لوازم وجوده كما ترى فيعلو على العلوم علو وجوده عن الوجودات فلا يتصور فى العلوم ما هو أعلى منه فيكون محيطا بكل ما يمكن علمه وإلا لتصور العقل علما أشمل وهو انما يكون لوجود أكمل وهو محال ما هو لازم لوجود الواجب يغنى بغناه ويبقى ببقائه وعلم الواجب من لوازم وجوده فلا يفتقر الى شئ ما وراء ذاته فهو أزلى أبدى غنى عن الآلات وجولات الفكر وأفاعيل النظر فيخالف علوم الممكنات بالضرورة ما يوجد من الممكنات فهو موافق لما انكشف بذلك العلم والا لم يكن علما

من أدلة ثبوت العلم للواجب ما نشاهده فى نظام الممكنات من الاحكام

والاتقان

والاتقان ووضع كل شئ فى موضعه وقرن كل ممكن بما يحتاج اليه فى وجوده وبقائه وذلك ظاهر لجلى النظر بما يشاهد فى الاعيان كبيرها وصغيرها علويها وسفليها فهذه الروابط بين الكواكب والنسب الثابتة بينها وتقدير حركاتها على قاعدة تكفل لها البقاء على الوضع الذى قدر لها والزام كل كوكب بمدار لو خرج عنه لاختل نظام عالمه أو العالم بأسره وغير ذلك مما فصل فى علوم الهيئة الفلكية كل ذلك يشهد بعلم صانعه وحكمة مدبره

اعتبر بما تراه فى جزئيات النباتات والحيوانات من توفيتها قواها وإيتائها ما تحتاج اليه فى تقويم وجودها من الآلات والاعضاء ووضع ذلك فى مواضعه من أبدانها وابداع غير الحساس منها كالنبات قوة الميل الى تناول ما يناسبه من الغذاء دون ما لا يلائمه فترى بزرة الحنظل تدفن بجوار حبة البطيخ فى أرض واحدة ثم تسقى بماء واحد وتنمى بعناية واحدة ولكن تلك تمتص من المواد ما يعد لها المر الزعاق وهذه تمتص ما يعدها لحلو المذاق وإرشاد الحساس منها الى استعمال ما منح من تلك الادوات والاعضاء وسوق كل قوة من قواه الى ما قدرت له فهو الذى يعلم حالة الجنين وهو نطفة أو علقة ويعلم حاجته متى تكامل خلقه وأنشأه نشأة الحى المستقل فى عمل الايدى والارجل والاعين والمشام والآذان وبقية المشاعر الباطنة ليستعمل ذلك فيما يقيم وجوده ويقيه من العوادى عليه وحاجته الى المعدة والقلب والكبد والرئة ونحوها من الاعضاء التى لا غنى عنها فى النمو والبقاء الى الاجل المحدود للشخص أو النوع

هو الذى يعلم حالة الجرو من الكلاب مثلا وأنها متى كبرت تلد أجراء

متعددة فيمنحها أطباء متكثرة وغير ذلك مما لا يستطاع احصاؤه وقد فصل الكثير منه في كتب النباتات وحياة الحيوان وما يسمى التاريخ الطبيعي وفنون منافع الاعضاء والطب وما يتبعه على أن الباحثين في كل ذلك بعد ما بذلوا من الجهد وما صرفوا من الهمم وما كشفوا من الاسرار لم يزالوا في أول البحث

هذا الصنيع الذي انما تتفاضل العقول في فهم أسراره والوقوف على دقائق حكمه ألا يدل على أن مصدره هو العالم بكل شئ الذي أعطى كل شئ خلقه ثم هدى هل يمكن لمجرد الاتفاق المسمى بالصدفة أن يكون ينبوعا لهذا النظام وواضعا لتلك القواعد التي يقوم عليها وجود الاكوان عظيمها وحقيرها كلا بل مبدع ذلك كله هو من لا يعزب عن علمه مثقال ذرة في الارض ولا في السماء وهو السميع العليم

الارادة

ثبت لواجب الوجود الارادة وهي صفة تخصص فعل العالم بأحد وجوهه الممكنة بعد ما ثبت أن واهب وجود الممكنات هو الواجب وأنه عالم وأن ما وجد من الممكن لابد أن يكون على وفق علمه ثبت بالضرورة أنه مريد لانه انما يفعل على حسب علمه ثم ان كل موجود فهو على قدر مخصوص وصفة معينة وله وقت ومكان محدودان وهذه وجوه قد خصصت من بين الوجوه الممكنة وتخصيصها كان على وفق العلم بالضرورة ولا معنى للارادة الا هذا

أما ما يعرف من معنى الارادة وهو ما به يصح للفاعل أن ينفذ ما قصده وأن

يرجع عنه فذلك محال فى جانب الواجب فان هذا المعنى من الهموم الكونية والعزائم القابلة للفسخ وهى من توابع النقص فى العلم فتتغير على حسب تغير الحكم وتردد الفاعل بين البواعث على الفعل والترك

القدرة

ومما يجب له القدرة وهى صفة بها الايجاد والاعدام ولما كان الواجب هو مبدع الكائنات على مقتضى علمه وارادته فلا ريب يكون قادرا بالبداهة لان فعل العالم المريد فيما علم وأراد انما يكون بسلطة له على الفعل ولا معنى للقدرة الا هذا السلطان

الاختيار

ثبوت هذه الصفات الثلاث يستلزم بالضرورة ثبوت الاختيار اذ لا معنى له الا إصدار الأثر بالقدرة على مقتضى العلم وعلى حكم الارادة فهو الفاعل المختار ليس من أفعاله ولا من تصرفه فى خلقه ما يصدر عنه بالعلية المحضة والاستلزام الوجودى بدون شعور ولا ارادة وليس من مصالح الكون ما يلزمه مراعاته لزوم تكليف بحيث لو لم يراعه لتوجه عليه النقد فيأتيه تنزه عن اللائمة تعالى عن ذلك علوا كبيرا ولكن نظام الكون ومصالحه العظمى انما تقررت بحكم أنه أثر الوجود الواجب الذى هو أكمل الوجودات وأرفعها فالكمال فى الكون انما هو تابع لكمال المكون وإتقان الابداع انما هو مظهر لسمو مرتبة المبدع وبهذا الوجود البالغ أعلى غايات النظام تعلق العلم الشامل والارادة المطابقة فصدر ويصدر على

هذا النمط الرفيع (أفحسبتم أنما خلقناكم عبثا وأنكم الينا لا ترجعون)
وهذا هو معنى قولهم ان أفعاله لا تعلل بالاغراض ولكنها تتنزه عن العبث
ويستحيل أن تخلو من الحكم وان خفى شئ من حكمتها عن أنظارنا

الوحدة

ومما يجب له صفة الوحدة ذاتا ووصفا ووجودا وفعلا أما الوحدة الذاتية
فقد أثبتناها فيما تقدم بنفى التركيب فى ذاته خارجا وعقلا وأما الوحدة
فى الصفة أى أنه لا يساويه فى صفاته الثابتة له موجود فلما بينا من أن الصفة
تابعة لمرتبة الوجود وليس فى الموجودات ما يساوى واجب الوجود فى
مرتبة الوجود فلا يساويه فيما يتبع الوجود من الصفات وأما الوحدة
فى الوجود وفى الفعل ونعنى بها التفرد بوجوب الوجود وما يتبعه من ايجاد
الممكنات فهى ثابتة لانه لو تعدد واجب الوجود لكان لكل من الواجبين
تعين يخالف تعين الآخر بالضرورة والالم يتحصل معنى التعدد وكلما
اختلفت التعينات اختلفت الصفات الثابتة للذوات المتعينة لان
الصفة انما تتعين وتنال تحققها الخاص بها بتعين ما تثبت له بالبداهة
فيختلف العلم والارادة باختلاف الذوات الواجبة اذ يكون لكل واحدة منها
علم وارادة يباينان علم الاخرى وارادتها ويكون لكل واحدة علم وارادة
يلائمان ذاتها وتعينها الخاص بها
هذا التخالف ذاتى لان علم الواجب وإرادته لازمان لذاته من ذاته لا لامر
خارج فلا سبيل الى التغير والتبدل فيهما كما سبق وقد قدمنا أن فعل
الواجب انما يصدر عنه على حسب علمه وحكم ارادته فيكون فعل كل

صادرا

صادرا على حكم يخالف الآخر مخالفة ذاتية فلو تعدد الواجبون لتخالفت أفعالهم بتخالف علومهم واراداتهم وهو خلاف يستحيل معه الوفاق وكل واحد بمقتضى وجوب وجوده وما يتبعه من الصفات له السلطة على الايجاد فى عامة الممكنات فكل له التصرف فى كل منها على حسب علمه وارادته ولا مرجح لنفاذ احدى القدرتين دون الاخرى فتتضارب أفعالهم حسب التضارب فى علومهم واراداتهم فيفسد نظام الكون بل يستحيل أن يكون له نظام بل يستحيل وجود ممكن من الممكنات لان كل ممكن لابد أن يتعلق به الايجاد على حسب العلوم والارادات المختلفة فيلزم أن يكون للشيء الواحد وجودات متعددة وهو محال فلو كان فيهما آلهة الا الله لفسدتا لكن الفساد ممتنع بالبداهة فهو جل شأنه واحد فى ذاته وصفاته لا شريك له فى وجوده ولا فى أفعاله

الصفات السمعية التي يجب الاعتقاد بها

ما قدمنا من الصفات التي يجب الاعتقاد بثبوتها لواجب الوجود هي ما أرشد اليه البرهان وجاءت الشريعة الاسلامية وما تقدمها من الشرائع المقدسة لتأييده والدعوة اليه بلسان نبينا محمد صلى الله عليه وسلم ولسان من سبقه من الانبياء صلوات الله عليهم أجمعين

ومن الصفات ما جاء ذكره على لسان الشرع ولا يحيله العقل اذا حمل على ما يليق بواجب الوجود ولكن لا يهتدى اليه النظر وحده ويجب الاعتقاد بأنه جل شأنه متصف بها اتباعا لما قرره الشرع وتصديقا لما أخبر به

فمن تلك الصفات صفة الكلام فقد ورد أن الله كلم بعض أنبيائه ونطق

القرآن بأنه كلام الله فمصدر الكلام المسموع عنه سبحانه لابد أن يكون شأنا من شؤنه قديما بقدمه أما الكلام المسموع نفسه المعبر عن ذلك الوصف القديم فلا خلاف فى حدوثه ولا فى أنه خلق من خلقه وخصص بالاسناد اليه لاختياره له سبحانه فى الدلالة على ما أراد إبلاغه لخلقه ولانه صادر عن محض قدرته ظاهرا وباطنا بحيث لامدخل لوجود آخر فيه بوجه من الوجوه سوى أن من جاء على لسانه مظهر لصدوره والقول بخلاف ذلك مصادرة للبداهة وتجرؤ على مقام القدم بنسبة التغير والتبدل اليه فان الآيات التى يقرؤها القارئ تحدث وتفنى بالبداهة كلما تليت والقائل بقدم القرآن المقروء أشنع حالا وأضل اعتقادا من كل ملة جاء القرآن نفسه بتضليلها والدعوة الى مخالفتها وليس فى القول بأن الله أوجد القرآن بدون دخل لكسب بشر فى وجوده ما يمس شرف نسبته بل ذلك غاية ما دعا الدين الى اعتقاده فهو السنة وهو ما كان عليه النبى وأصحابه وكل ما خالفه فهو بدعة وضلالة

أما ما تقلب فيه الناس من ذلك الخلاف الذى فرق الامة وأحدث فيها الأحداث خصوصا فى أوائل القرن الثالث من الهجرة وإباء بعض الأئمة أن ينطق بأن القرآن مخلوق فقد كان منشؤه مجرد التحرج والمبالغة فى التأدب من بعضهم والافتجال مقام مثل الامام ابن حنبل عن أن يعتقد أن القرآن المقروء قديم وهو يتلوه كل ليلة بلسانه ويكيفه بصوته

ومما ثبت له بالنقل صفة البصر وهى ما به تنكشف المبصرات وصفة السمع وهى ما به تنكشف المسموعات فهو السميع البصير لكن علينا أن نعتقد أن هذا الانكشاف ليس بآلة ولا جارحة ولا حدقة ولا باصرة

كلام في الصفات اجمالا

أبتدئ الكلام فيما أقصد بذكر حديث إن لم يصح فكتاب الله بجملته وتفصيله يؤيد معناه وهو قوله صلى الله عليه وسلم تفكروا في خلق الله ولا تفكروا في ذاته فتهلكوا

اذا قدرنا عقل البشر قدره وجدنا غاية ما ينتهي اليه كماله انما هو الوصول الى معرفة عوارض بعض الكائنات التي تقع تحت الادراك الانساني حسا كان أو وجدانا أو تعقلا ثم التوصل بذلك الى معرفة مناشئها وتحصيل كليات لانواعها والاحاطة ببعض القواعد لعروض مايعرض لها أما الوصول الى كنه حقيقة ما فمما لا تبلغه قوته لان اكتناه المركبات انما هو باكتناه ماتركبت منه وذلك ينتهي الى البسيط الصرف وهو لا سبيل الى اكتناهه بالضرورة وغاية مايمكن عرفانه منه هو عوارضه وآثاره خذ أظهر الاشياء وأجلاها كالضوء قرر الناظرون فيه له أحكاما كثيرة فصلوها في علم خاص به ولكن لم يستطع ناظر أن يفهم ماهو ولا أن يكتنه معنى الاضاءة نفسه وانما يعرف من ذلك مايعرفه كل بصير له عينان وعلى هذا القياس

ثم ان الله لم يجعل للانسان حاجة تدعو الى اكتناه شيء من الكائنات وانما حاجته الى معرفة العوارض والخواص ولذة عقله ان كان سليما انما هي تحقيق نسبة تلك الخواص الى ما اختصت به وادراك القواعد التي قامت عليها تلك النسب فالاشتغال بالاكتناه إضاعة للوقت وصرف للقوة الى غير ماسيقت اليه

اشتغل الانسان بتحصيل العلم بأقرب الاشياء اليه وهي نفسه أراد أن يعرف بعض عوارضها وهل هي عرض أو جوهر هل هي قبل الجسم أو بعده هل هي فيه أو مجردة عنه كل هذه صفات لم يصل العقل الى اثبات شيء منها يمكن الاتفاق عليه وانما مبلغ جهده أنه عرف أنه موجود حي له شعور وإرادة وكل ما أحاط به بعد ذلك من الحقائق الثابتة فهو راجع الى تلك العوارض التي وصل اليها ببديهته أما كنه شيء من ذلك بل وكيفية اتصافه ببعض صفاته فهو مجهول عنده ولا يجد سبيلا للعلم به .

هذا حال العقل الانساني مع ما يساويه في الوجود أو ينحط عنه بل وكذلك شأنه فيما يظن من الافعال أنه صادر عنه كالفكر وارتباطه بالحركة والنطق فما يكون من أمره بالنسبة الى ذلك الوجود الاعلى ماذا يكون اندهاشه بل انقطاعه اذا وجه نظره الى ما لا يتناهى من الوجود الازلي الابدي

النظر في الخلق يهدي بالضرورة الى المنافع الدنيويه ويضيء للنفس طريقها الى معرفة من هذه آثاره وعليها تجلت أنواره والى اتصافه بما أثر له مما صدرت عنه هذه الآثار على ما هي عليه من النظام وتخالف الانظار في الكون انما هو من تصارع الحق والباطل ولا بد أن يظفر الحق ويعلو على الباطل بتعاون الافكار أو صولة القوي منها على الضعيف

أما الفكر في ذات الخالق فهو طلب للاكتناه من جهة وهو ممتنع على العقل البشري لما علمت من انقطاع النسبة بين الوجودين ولاستحالة التركيب في ذاته وتناول لما لا تبلغه القوة البشرية من جهة أخرى فهو عبث ومهلكة عبث لانه سعي الى ما لا يدرك ومهلكة لانه يؤدي الى الخبط في الاعتقاد لانه تحديد لما لا يجوز تحديده وحصر لما لا يصح حصره

لا

لاريب أن هذا الحديث وما أتينا عليه من البيان كما يأتى فى الذات من حيث هى يأتى فيها مع صفاتها فالنهى واستحالة الوصول الى الاكتناه شاملان لها فيكفينا من العلم بها أن نعلم أنه متصف بها أما ماوراء ذلك فهو مما يستأثر هو بعلمه ولا يمكن لعقولنا أن تصل اليه ولهذا لم يأت الكتاب العزيز وما سبقه من الكتب الا بتوجيه النظر الى المصنوع لينفذ منه الى معرفة وجود الصانع وصفاته الكمالية أما كيفية الاتصاف فليس من شأننا أن نبحث فيه

فالذى يوجبه علينا الايمان هو أن نعلم أنه موجود لا يشبه الكائنات أزلى أبدى حى عالم مريد قادر متفرد فى وجوب وجوده وفى كمال صفاته وفى صنع خلقه وأنه متكلم سميع بصير وما يتبع ذلك من الصفات التى جاء الشرع باطلاق أسمائها عليه أما كون الصفات زائدة على الذات وكون الكلام صفة غير ما اشتمل عليه العلم من معانى الكتب السماوية وكون السمع والبصر غير العلم بالمسموعات والمبصرات ونحو ذلك من الشؤن التى اختلف عليها النظار وتفرقت فيها المذاهب فمما لا يجوز الخوض فيه اذ لا يمكن لعقول البشر أن تصل اليه والاستدلال على شئ منه بالالفاظ الواردة ضعف فى العقل وتغرير بالشرع لان استعمال اللغة لا ينحصر فى الحقيقة ولئن انحصر فيها فوضع اللغة لا تراعى فيه الوجودات بكنهها الحقيقى وانما تلك مذاهب فلسفية إن لم يضل فيها أمثلهم فلم يهتد فيها فريق الى مقنع فما علينا الا الوقوف عندما تبلغه عقولنا وأن نسأل الله أن يغفر لمن آمن به وبما جاء به رسله ممن تقدمنا

أفعال الله جل شأنه

أفعال الله صادرة عن علمه وإرادته كما سبق تقريره وكل ما صدر عن علم وإرادة فهو عن الاختيار ولا شيء مما يصدر عن الاختيار بواجب على المختار لذاته فلا شيء من أفعاله بواجب الصدور عنه لذاته فجميع صفات الافعال من خلق ورزق وإعطاء ومنع وتعذيب وتنعيم مما يثبت له تعالى بالامكان الخاص فلا يطوفن بعقل عاقل بعد تسليم أنه فاعل عن علم وارادة أن يتوهم أن شيأ من أفعاله واجب عنه لذاته كما هو الشأن في لوازم الماهيات أو في اتصاف الواجب بصفاته مثلا فان ذلك هو التناقض البديهي الاستحالة كما سبق الاشارة اليه

بقيت علينا جولة نظر في تلك المقالات الحمق التي اختبط فيها القوم اختباط اخوة تفرقت بهم الطرق في السير الى مقصد واحد حتى اذا التقوا في غسق الليل صاح كل فريق بالآخر صيحة المستخبر فظن كل أن الآخر عدو يريد مقارعته على ما بيده فاستحر بينهم القتال ولا زالوا يتجالدون حتى تساقط جلهم دون المطلب ولما أسفر الصبح وتعارفت الوجوه رجع الرشد الى من بقي وهم الناجون ولو تعارفوا من قبل لتعاونوا جميعا على بلوغ ما أملوا ولوافتهم الغاية اخوانا بنور الحق مهتدين نريد تلك المقالات المضطربة في أنه يجب على الله رعاية المصلحة في أفعاله وتحقيق وعيده فيمن تعدى حدوده من عبيده وما يتلو ذلك من وقوع أعماله تحت العلل والاغراض فقد بالغ قوم في الايجاب حتى ظن الناظر في مزاعمهم أنهم عدوه واحدا من المكلفين يفرض عليه أن يجهد للقيام بما عليه من

الحقوق وتأدية ما لزمه من الواجبات تعالى عن ذلك علوًّا كبيرا وغلا آخرون فى نفى التعليل عن أفعاله حتى خيل للمعن فى مقالاتهم أنهم لا يرضونه إلا قُلّبًا يبرم اليوم ما نقضه بالامس ويفعل غدا ما أخبر بنقيضه اليوم أو غافلا لا يشعر بما يستتبعه عمله سبحان ربك رب العزة عما يصفون وهو أحكم الحاكمين وأصدق القائلين جبروت الله وطهارة دينه أعلى وأرفع من هذا كله

اتفق الجميع على أن أفعاله تعالى لا تخلو من حكمة وصرّح الغلاة والمقصرون جميعا بأنه تعالى منزه عن العبث فى أفعاله والكذب فى أقواله ثم بعد هذا أخذوا يتنابذون بالالفاظ ويتمارون فى الاوضاع ولا يدرى الى أىّ غاية يقصدون فلنأخذ ما اتفقوا عليه ولنردّ الى حقيقة واحدة ما اختلفوا فيه

حكمة كل عمل ما يترتب عليه مما يحفظ نظاما أو يدفع فسادا خاصا كان أو عاما لو كشف للعقل من أىّ وجه لعقله وحكم بأن العمل لم يكن عبثا ولعبا ومن يزعم للحكمة معنى لا يرجع الى هذا حاكمناه الى أوضاع اللغة وبداهة العقل لا يسمى ما يترتب على العمل حكمة ولا يتمثل عند العقل بشأنها الا اذا كان ما يتبع العمل مرادا للفاعل بالفعل والا لعدّ النائم حكيما فيما لو صدرت عنه حركة فى نومه قتلت عقربا كاد يلسع طفلا أو دفعت صبيا عن حفرة كاد يسقط فيها بل لوصف بالحكمة كثير من الجمادات اذا استتبعت حركاتها بعض المنافع الخاصة أو العامة والبداهة تأباه

من القواعد الصحيحة المسلمة عند جميع العقلاء «أن أفعال العاقل تصان عن العبث» ولا يريدون من العاقل الا العالم بما يصدر عنه بإرادته

ويريدون من صونها عن العبث أنها لا تصدر إلا لأمر يترتب عليها يكون غاية لها وإن كان هذا في العاقل الحادث فما ظنك بمصدر كل عقل ومنتهى الكمال في العلم والحكم هذه كلها مسلمات لا ينازع فيها أحد

صنع الله الذي أتقن كل شيء وأحسن خلقه مشحون بضروب الحكم ففيه ما قامت به السموات والارض وما بينهما وحفظ به نظام الكون بأسره وما صانه عن الفساد الذي يفضي به الى العدم وفيه ما استقامت به مصلحة كل موجود على حدته خصوصاً ما هو من الموجودات الحية كالنبات والحيوان ولولا هذه البدائع من الحكم ما تيسر لنا الاستدلال على علمه

فهذه الحكم التي نعرفها الآن بوضع كل شيء في موضعه وإيتاء كل محتاج ماله إليه الحاجة إما أن تكون معلومة له مرادة مع الفعل أم لا لا يمكن القول بالثاني وإلا كان قولا بقصور العلم إن لم تكن معلومة أو بالغفلة إن لم تكن مرادة وقد سبق تحقيق أن علمه وسع كل شيء واستحالة غيبة أثر من آثاره عن ارادته فهو يريد الفعل ويريد ما يترتب عليه من الحكمة ولا معنى لهذا إلا إرادته للحكمة من حيث هي تابعة للفعل ومن المحال أن تكون الحكمة غير مرادة بالفعل مع العلم بارتباطها به فيجب الاعتقاد بأن أفعاله يستحيل أن تكون خالية من الحكمة وبأن الحكمة يستحيل أن تكون غير مرادة اذ لو صح توهم أن ما يترتب على الفعل غير مراد لم يعد ذلك من الحكمة كما سبق

فوجوب الحكمة في أفعاله تابع لوجوب الكمال في علمه وارادته وهو مما لا نزاع فيه بين جميع المتخالفين وهكذا يقال في وجوب تحقق ما وعد

وأوعد به فانه تابع لكمال علمه وارادته وصدقه وهو أصدق القائلين وما جاء في الكتاب أو السنة مما قد يوهم خلاف ذلك يجب إرجاعه الى بقية الآيات وسائر الآثار حتى ينطبق الجميع على ما هدت اليه البديهيات السابق ايرادها وعلى ما يليق بكمال الله وبالغ حكمته وجليل عظمته

والاصل الذي يرجع اليه كل وارد في هذا الباب قوله تعالى وما خلقنا السماء والارض وما بينهما لاعبين لو أردنا أن نتخذ لهوا لاتخذناه من لدنا إن كنا فاعلين بل نقذف بالحق على الباطل فيدمغه فاذا هو زاهق ولكم الويل مما تصفون

وقوله لاتخذناه من لدنا أي لصدر عن ذاتنا المتفردة بالكمال المطلق الذي لا يشوبه نقص وهو محال وإن في قوله ان كنا فاعلين نافية وهو نتيجة القياس السابق

بقي أن الناظرين في هذه الدقائق ينقسمون الى قسمين فنهم من يطلب علمها لانه شهوة العقل وفيه لذته فهذا القسم يسمي المعاني بأسمائها ولا يبالي جوز الشرع اطلاقها في جانب الله أم لم يجوز فيسمي الحكمة غاية وغرضا وعلة غائية ورعاية للمصلحة وليس من رأيه أن يجعل لقلمه عنانا يرده عن اطلاق اسم متى صح عنده معناه وقد يعبر بالواجب عليه بدل الواجب له غير مبال بما يوهمه اللفظ

ومنهم من يطلب علمها مع مراعاة أن ذلك دين يتعبد به واعتقاد يشؤن لاله عظيم يعبد بالتحميد والتعظيم ويجب الاحتياط في تنزيهه حتى بعفة اللسان عن النطق بما يوهم نقصا في جانبه فيتبرأ من تلك الالفاظ مفردها ومركبها فان الوجوب عليه يوهم التكليف والالزام وبعبارة أخرى

بوهم القهر والتأثر بالاغيار ورعاية المصلحة توهم إعمال النظر وإجالة الفكر وهما من لوازم النقص فى العلم والغاية والعلة الغائية والغرض توهم حركة فى نفس الفاعل من قبل البدء فى العمل الى نهايته وفيها ما فى سوابقها ولكن الله أكبر هل يصح أن تكون سعة المجال أو التعفف فى المقال سببا فى التفرقة بين المؤمنين وتماريهم فى الجدال حتى ينتهى بهم التفرق الى ما صاروا اليه من سوء الحال

أفعال العباد

كما يشهد سليم العقل والحواس من نفسه أنه موجود ولا يحتاج فى ذلك الى دليل يهديه ولا معلم يرشده كذلك يشهد أنه مدرك لاعماله الاختيارية يزن نتائجها بعقله ويقدرها بارادته ثم يصدرها بقدرة مافيه ويعد انكار شىء من ذلك مساويا لانكار وجوده فى مجافاته لبداهة العقل

كما يشهد بذلك فى نفسه يشهده أيضا فى بنى نوعه كافة متى كانوا مثله فى سلامة العقل والحواس ومع ذلك فقد يريد إرضاء خليل فيغضبه وقد يطلب كسب رزق فيفوته وربما يسعى الى منجاة فيسقط فى مهلكة فيعود باللائمة على نفسه ان كان لم يحكم النظر فى تقدير فعله ويتخذ من خيبته أول مرة مرشدا له فى الاخرى فيما يعاود العمل من طريق أقوم ووسائل أحكم ويتقد غيظه على من حال بينه وبين ما يشتهى إن كان سبب الاخفاق فى السعى منازعة منافس له فى مطلبه أو يجد فى نفسه أنه الفاعل فى حرمان نفسه لما فاته وتارة يتجه الى أمر أسمى من ذلك إن لم يكن لتقصيره أو لمنافسة غيره دخل فيما لقى من مصيبة كأن هب ريح

فأغرق

فأغرق بضاعته أونزل صاعق فأحرق ماشيته أوعلق أمله بعين فمات أوبذي منصب فعزل يتجه من ذلك الى أن في الكون قوة أسمى من أن تحيط بها قدرته وأن وراء تدبيره سلطانا لاتصل اليه سلطته فان كان قد هداه البرهان وتقويم الدليل الى أن حوادث الكون بأسره مستندة الى واجب وجود واحد يصرّفه على مقتضى علمه وارادته خشع وخضع ورد الامر اليه فيما التى ولكن مع ذلك لا ينسى نصيبه فيما بقى فالمؤمن كما يشهد بالدليل وبالعيان أن قدرة مكوّن الكائنات أسمى من قوى الممكنات يشهد بالبداهة أنه في أعماله الاختيارية عقلية كانت أو جسمانية قائم بتصريف ماوهب الله له من المدارك والقوى فيما خلقت لاجله وقد عرّف القوم شكر الله على نعمه فقالوا هو صرف العبد جميع ما أنعم الله به عليه الى ما خلق لاجله

على هذا قامت الشرائع وبه استقامت التكاليف ومن أنكر شيأ منه فقد أنكر مكان الايمان من نفسه وهو عقله الذي شرّفه الله بالخطاب في أوامره ونواهيه

أما البحث فيما وراء ذلك من التوفيق بين ما قام عليه الدليل من احاطة علم الله وارادته وبين ما تشهد به البداهة من عمل المختار فيما وقع عليه الاختيار فهو من طلب سرّ القدر الذي نهينا عن الخوض فيه واشتغال بما لا تكاد تصل العقول اليه وقد خاض فيه الذين من كل ملة خصوصا من المسيحيين والمسلمين ثم لم يزالوا بعد طول الجدال وقوفا حيث ابتدؤا وغاية ما فعلوا أن فرقوا وشتتوا فمنهم القائل بسلطة العبد على جميع أفعاله واستقلالها المطلق وهو غرور ظاهر ومنهم من قال بالجبر

وصرح به ومنهم من قال به وتبرأ من اسمه وهو هدم الشريعة ومحو التكاليف وابطال لحكم العقل البديهي وهو عماد الايمان

ودعوى أن الاعتقاد بكسب العبد لافعاله يؤدي الى الاشراك بالله وهو الظلم العظيم دعوى من لم يلتفت الى معنى الاشراك على ما جاء به الكتاب والسنة فالاشراك اعتقاد أن لغير الله أثرا فوق ما وهبه الله من الاسباب الظاهرة وأن لشيء من الاشياء سلطانا على ما خرج عن قدرة المخلوقين وهو اعتقاد من يعظم سوى الله مستعينا به فيما لا يقدر العبد عليه كالاستنصار في الحرب بغير قوة الجيوش والاستشفاء من الامراض بغير الادوية التي هدانا الله اليها والاستعانة على السعادة الاخروية أو الدنيوية بغير الطرق والسنن التي شرعها الله لنا هذا هو الشرك الذي كان عليه الوثنيون ومن ماثلهم فجاءت الشريعة الاسلامية بمحوه ورد الامر فيما فوق القدرة البشرية والاسباب الكونية الى الله وحده وتقرير أمرين عظيمين هما ركنا السعادة وقوام الاعمال البشرية الاول أن العبد يكسب بارادته وقدرته ما هو وسيلة لسعادته والثاني أن قدرة الله هي مرجع لجميع الكائنات وأن من آثارها ما يحول بين العبد وبين انفاذ ما يريده وأن لا شيء سوى الله يمكن له أن يمد العبد بالمعونة فيما لم يبلغه كسبه جاءت الشريعة لتقرير ذلك وتحريم أن يستعين العبد بأحد غير خالقه في توفيقه الى إتمام عمله بعد إحكام البصيرة فيه وتكليفه بأن يرفع همته الى استمداد العون منه وحده بعد أن يكون قد أفرغ ما عنده من الجهد في تصحيح الفكر وإجادة العمل ولا يسمح العقل ولا الدين لاحد أن يذهب الى غير ذلك وهذا الذي قررناه قد اهتدى اليه سلف الامة فقاموا من الاعمال بما عجبت له

الامم وعوّل عليه من متأخرى أهل النظر امام الحرمين الجوينى رحمه الله وان أنكر عليه بعض من لم يفهمه

أكرر القول بأن الايمان بوحدانية الله لا يقتضى من المكلف الا اعتقاد أن الله صرّفه فى قواه فهو كاسب لايمانه ولما كلفه الله به من بقية الاعمال واعتقاد أن قدرة الله فوق قدرته ولها وحدها السلطان الاعلى فى اتمام مراد العبد بازالة الموانع أو تهيئة الاسباب المتممة مما لا يعلمه ولا يدخل تحت ارادته

أما التطلع الى ما هو أغمض من ذلك فليس من مقتضى الايمان كما بينا وانما هو من شره العقول فى طلب رفع الاستار عن الاسرار ولا أنكر أن قوما قد وصلوا بقوة العلم والمثابرة على مجاهدة المدارك الى ما اطمأنت به نفوسهم وتقشعت به حيرتهم ولكن قليل ما هم على أن ذلك نور يقذفه الله فى قلب من شاء ويخص به أهل الولاية والصفاء وكثر ما ضلّ قوم وأضلوا وكان لمقالاتهم أسوأ الاثر فيما عليه حال الامة اليوم

لو شئت لقربت البعيد فقلت إن من بالغ الحكم فى الكون أن تتنوع الانواع على ما هى عليه فى العيان ولا يكون النوع ممتازا عن غيره حتى تلزمه خواصه وكذا الحال فى تميز الاشخاص فواهب الوجود يهب الانواع والاشخاص وجودها على ما هى عليه ثم كل وجود متى حصل كانت له توابعه ومن تلك الانواع الانسان ومن مميزاته حتى يكون غير سائر الحيوانات أن يكون مفكرا مختارا فى عمله على مقتضى فكره فوجوده الموهوب مستتبع لمميزاته هذه ولو سلب شىء منها لكان إما ملكا أو حيوانا آخر والفرض أنه الانسان فهبة الوجود له لا شىء فيها من القهر على العمل

ثم علم الواجب محيط بما يقع من الانسان بارادته وبأن عمل كذا يصدر في وقت كذا وهو خير يثاب عليه وأن عملا آخر شر يعاقب عليه عقاب الشر والاعمال في جميع الاحوال حاصلة عن الكسب والاختيار فلا شيء في العلم بسالب للتخيير في الكسب وكون ما في العلم يقع لا محالة انما جاء من حيث هو الواقع والواقع لا يتبدل

ولنا في علومنا الكونية أقرب الامثال شخص من أهل العناد يعلم علم اليقين أن عصيانه لامير ما باختياره يحل به عقوبته لا محالة لكنه مع ذلك يعمل العمل ويستقبل العقوبة وليس لشيء من علمه وانطباقه على الواقع أدنى أثر في اختياره لا بالمنع ولا بالالزام فانكشاف الواقع للعالم لا يصح في نظر العقل ملزما ولا مانعا واغا ربك الوهم تغيير العبارات وتشعب الالفاظ ولو شئت لزدت في بيان ذلك ورجوت أن لا يبعد عن عقل ألف النظر الصحيح ولم تفسد فطرته بالمماحكات اللفظية لكن يمنعني عن الاطالة فيه عدم الحاجة اليه في صحة الايمان وتقاصر عقول العامة عن ادراك الامر في ذاته مهما بالغ المعبر في الايضاح عنه والتياث قلوب الجمهور من الخاصة بمرض التقليد فهم يعتقدون الامر ثم يطلبون الدليل عليه ولا يريدونه الا موافقا لما يعتقدون فان جاءهم بما يخالف ما اعتقدوا نبذوه ولجوا في مقاومته وان أدى ذلك الى جحد العقل برمته فأكثرهم يعتقد فيستدل وقلما تجد بينهم من يستدل ليعتقد فان صاح بهم صائح من أعماق سرائرهم ويل للخابط ذلك قلب لسنة الله في خلقه وتحريف لهديه في شرعه عرتهم هزة من الجزع ثم عادوا الى السكون محتجين بأن هذا هو ما أدركنا وما نشأنا الا على معروف ولا حول ولا قوة الا بالله العلي العظيم

حسن

حسن الافعال وقبحها

الافعال الانسانية الاختيارية لا تخرج عن أن تكون من الاكوان الواقعة تحت مداركنا وما تنفعل به نفوسنا عند الاحساس بها أو استحضار صورها يشابه كل المشابهة ما تنفعل به عند وقوع بعض الكائنات تحت حواسنا أو حضورها فى مخيلاتنا وذلك بديهى لا يحتاج الى دليل

نجد فى أنفسنا بالضرورة تمييزا بين الجميل من الاشياء والقبيح منها فان اختلفت مشارب الرجال فى فهم جمال النساء أو مشارب النساء فى معنى جمال الرجال فلم يختلف أحد فى جمال ألوان الازهار وتنضيد أوراق النباتات والاشجار خصوصا اذا كانت أوضاع الزهر على أشكال تمثل الائتلاف والتناسب بين تلك الالوان بعضها مع بعض ولا فى قبح الصورة الممثل بها تشويه بعض أجزائها واقطاع البعض الآخر على غير نظام وانفعال أنفسنا من الجميل بهجة أو اعجاب ومن القبيح اشمئزازا أو جزع وكما يقع هذا التمييز فى المبصرات يقع فى غيرها من المسموعات والملموسات والمذوقات والمشمومات كما هو معروف لكل حساس من بنى آدم باحدى تلك الحواس

ليس هذا موضع تحديد ما هو الجمال وما هو القبح فى الاشياء ولكن لا يخالفنا أحد فى أن من خواص الانسان بل وبعض الحيوان التمييز بينهما وعلى هذا التمييز قامت الصناعات على اختلاف أنواعها وبه ارتقى العمران فى أطواره الى الحد الذى نراه عليه الآن وان اختلفت الاذواق فى الاشياء جمال وقبح

هذا فى المحسوسات واضح كما سبق ولعله لا ينزل عن تلك الدرجة فى الوضوح
ما يلم به العقل من الموجودات المعقولة وان اختلف اعتبار الجمال فيها
فالكمال فى المعقولات كالوجود الواجب والارواح اللطيفة وصفات
النفوس البشرية له جمال تشعر به أنفس عارفيه وتبهر له بصائر لاحظيه
والنقص قبح لا تنكره المدارك العالية وان اختلف أثر الشعور ببعض
أطواره فى الوجدان عن أثر الاحساس بالقبيح فى المحسوسات وهل
فى الناس من ينكر قبح النقص فى العقل والسقوط فى الهمة وضعف
العزيمة ويكفى أن أرباب هذه النقائص المعنوية يجاهدون فى إخفائها
ويفخرون أحيانا بأنهم متصفون باضدادها

وقد يجمل القبيح بجمال أثره ويقبح الجميل بقبح ما يقترن به فالمر قبيح
مستبشع والملاك الدميم المشوه الخلقة ينبو عنه النظر لكن أثر المر فى
معالجة المرض وعدل الدميم فى رعيته أو إحسانه اليك فى خاصة نفسك
يغير من حالتك النفسية عند حضور صورته فان جمال الاثر يلقى على
صاحبه أشد من رؤيته فلا يشعر الوجدان منه الا بالجميل ومثل ذلك
يقال فى قبح الحلو اذا أضر واستمرار النفس من الجميل اذا ظلم وأصر
هل يمكن لعاقل أن لا يقول فى الافعال الاختيارية كما قال فى الموجودات
الكونية مع أنها نوع منها وتقع تحت حواسنا ومداركنا العقلية إما
بنفسها وإما بأثرها وتنفعل نفوسنا بما يلم بها منها كما تنفعل بما يرد عليها
من صور الكائنات كلا بل هى قسم من الموجودات حكمها فى ذلك حكم
سائرها بالبداهة

فمن الافعال الاختيارية ماهو محبب فى نفسه تجد النفس منه ماتجد من جمال الخلق كالحركات العسكرية المنتظمة وتقلب المهرة من اللاعبين فى الألاعيب المعروفة اليوم «بالجمناستيك» وكايقاع النغمات على القوانين الموسيقية من العارف بها ومنها ماهو قبيح فى نفسه يحس منه مايحس من رؤية الخلق المشوه كتخبط ضعفاء النفوس عند الجزع وكولولة النائحات ونقع المذعورين

ومنها ماهو قبيح لما يعقبه من الالم وماهو حسن لما يجلب من اللذة أو دفع الالم فالاول كالضرب والجرح وكل مايؤلم من أفعال الانسان والثانى كالاكل على جوع والشرب على عطش وكل مايحصل لذة أو يدفع ألما مما لايحصى عده وفى هذا القسم يكون الحسن بمعنى مايلذ والقبيح بمعنى المؤلم

وقلما يختلف تمييز الانسان للحسن والقبيح من الافعال بالمعنيين السابقين عن تمييز الحيوانات المرتقية فى سلسلة الوجود اللهم الا فى قوة الوجدانات وتحديد مرتبة الجمال والقبح

ومن الافعال الاختيارية مايحسن باعتبار مايجلب من النفع ومايقبح بما يجر اليه من الضرر ويختص الانسان بالتمييز بين الحسن والقبيح بهذا المعنى اذا حذق فى كل وجهاته وقلما ينتبه اليه فيه حيوان آخر اللهم إلا من أحط جهاته وهو خاصة العقل وسر الحكمة الالهية فى هبة الفكر

فمن اللذيذ مايقبح لشؤم عاقبته كالافراط فى تناول الطعام والشراب والانقطاع الى سماع الاغانى والجرى فى أعقاب الشهوات فان ذلك

مفسدة للصحة مضيعة للعقل متلفة للمال مدعاة للعجز والذل وأعاقبح اللذيذ في هذا الموضع لقصر مدته وطول مدة ما يجر اليه عادة من الآلام التي قد لا تنتهي الا بالموت على أسوإ حالاته ولضعف النسبة بين متاع اللذة ومقاساة شدائد الالم ومن المؤلم ما يحسن كتجشم مشاق التعب في الاعمال لكسب الرزق وتأمين النفس على حاجاتها في أوقات الضعف ومجاهدة الشهوات ومقاساة الحرمان من بعض اللذات حينا من الزمن ليتوفر للقوى البدنية والعقلية حظها من التمتع بما قدر لها من اللذائذ على وجه ثابت لا يخالطه اضطراب أو على نمط يخفف من رزايا الحياة إن عدت الحياة مثارا لها

ومن المؤلم الذي عده العقل البشري حسنا مقارعة الانسان عدوه سواء كان من نوعه أو من غيره للمدافعة عن نفسه أو عن أنصاره ومنهم بنو أبيه أو قبيلته أو شعبه أو أمته حسب ارتقائه في الاحساس ومخاطرته حتى بحياته في سبيل ذلك كأنه يرى في بذل هذه الحياة أمنا على حياة أخرى تشعر بها نفسه وان لم يحددها عقله ومنه معاناة التعب في كشف ما عمي عن عليه من حقائق الكون كأنه لا يرى المشقة في ذلك شيأ بالقياس الى ما يحصل من لذة الاطمئنان على الحق بقدر ماله من الاستطاعة

وعد من اللذيذ المستقبح مد اليد الى ما كسبه الغير بسعيه واستشفاء ألم الحقد باتلاف نفس المحقود عليه أو ماله لما في ذلك من جلب المخافة العامة حتى على ذات المستدي ويمكنك من نفسك استحضار ما يتبع الوفاء بالعهود والعقود والغدر فيها

كل هذا عرفه العقل البشري وفرق فيه بين الضار والنافع وسمى الاول

فعل الشر والثانى عمل الخير وهذا التفريق هو منبت التمييز بين الفضيلة والرذيلة وقد حدّدهما النظر الفكرى على تفاوت فى الاجمال والتفصيل لتفاوت فى درجات عقول الناظرين وناط بهما سعادة الانسان وشقاءه فى هذه الحياة كما ربط بهما نظام العمران البشرى وفساده وعزة الامم وذلتها وضعفها وقوتها وان كان المحدّدون لذلك والآخذون فيه بحظ من الصواب هم العدد القليل من عقلاء البشر

كل هذا من الاوليات العقلية لم يختلف فيه مليّ ولا فيلسوف فللاعمال الاختيارية حسن وقبح فى نفسها أو باعتبار أثرها فى الخاصة أو فى العامة والحس أو العقل قادر على تمييز ما حسن منها وما قبح بالمعانى السابقة بدون توقف على سمع والشاهد على ذلك ما نراه فى بعض أصناف الحيوان وما نشهده فى أفاعيل الصبيان قبل تعقل ما معنى الشرع وما وصل الينا من تاريخ الانسان فيما عرف عنه فى جاهليته

ومما يحسن ذكره هنا ما شاهده بعض الناظرين فى أحوال النمل قال كانت جماعة من النمل تشتغل فى بيت لها فجاءت نملة كأنها القائمة بمراقبة العمل فرأت المشتغلات قد وضعت السقف على أقل من الارتفاع المناسب فأمرت بهدمه فهدم ورفع البنيان الى الحد الموافق ووضع السقف على أرفع مما كان وذلك من أظهر ما تقيس السقف القديم وهو ناهض التمييز بين الضار والنافع فمن زعم أن لا حسن ولا قبح فى الاعمال على الاطلاق فقد سلب نفسه العقل بل عدّها أشد حمقا من النمل

سبق لنا أن واجب الوجود وصفاته الكمالية تعرف بالعقل فاذا وصل مستدلّ ببرهانه الى اثبات الواجب وصفاته الغير السمعية ولم تبلغه بذلك

رسالة كما حصل لبعض أقوام من البشر ثم انتقل من النظر فى ذلك وفى أطوار نفسه الى أن مبدأ العقل فى الانسان يبقى بعد موته كما وقع لقوم آخرين ثم انتقل من هذا مخطئا أو مصيبا الى أن بقاء النفس البشرية بعد الموت يستدعى سعادة لها فيه أو شقاء ثم قال إن سعادتها إنما تكون بمعرفة الله وبالفضائل وانها إنما تسقط فى الشقاء بالجهل بالله وبارتكاب الرذائل وبنى على ذلك أن من الاعمال ما هو نافع للنفس بعد الموت بتحصيل السعادة ومنها ما هو ضار لها بعده بايقاعها فى الشقاء فأى مانع عقلى أو شرعى يحظر عليه أن يقول بعد ذلك بحكم عقله إن معرفة الله واجبة وان جميع الفضائل وما يتبعها من الاعمال مفروضة وان الرذائل وما يكون عنها محظورة وأن يضع لذلك ما يشاء من القوانين ليدعو بقية البشر الى الاعتقاد بمثل ما يعتقد والى أن يأخذ من الاعمال بمثل ما أخذ به حيث لم يوجد شرع يعارضه

أما أن يكون ذلك حالا لعامة الناس يعلمون بعقولهم أن معرفة الله واجبة وأن الفضائل مناط السعادة فى الحياة الاخرى والرذائل مدار الشقاء فيها فمما لا يستطيع عاقل أن يقول به والمشهود من حال الامم كافة يضلل القائل به فى رأيه

لو كانت حاجات الانسان ومخاوفه محدودة كما هى حاجات فيل أو أسد مثلا وكان ما وهب له من الفكر واقفا عند حد ما إليه الحاجة لاهتدى الى المنافع واتقاء المضار على وجه لا يختلف فيه أفراده ولسعدت حياته وتخلص كل من شر الآخر ونجا بقية الحيوانات من غائلة الجميع لكن قضى عليه حكم نوعه بأن لا يكون لحاجته حد ولا تختص معيشته

بجو من الاجواء ولا بوضع من الاوضاع وأن يوهب من القوى المدركة ما يكفيه استعماله فى سد عوزه وتوفير لذاته فى أى إقليم وعلى أى حال وأن يختلف ظهور هذه المدارك فى أطوارها وآثارها باختلاف أصنافه وشعوبه وأشخاصه اختلافا لا تنتهى درجاته ولولا هذا لما اختلف عن بقية الحيوانات الا باستقامة القامة وعرض الاظفار

وهب الله الانسان أو سلط عليه ثلاث قوى لم يساوه فيها حيوان الذاكرة والمخيلة والمفكرة فالمذكرة تثير من صور الماضى ما ستره الاشتغال بالحاضر فتستحضر من صور المرغوبات والمكروهات ما تنبه اليه الاشباه أو الاضداد الحاضرة فقد يذكر الشئ بشبهه وقد يذكر بضده كما هو بديهى والخيال يجسم من المذكور وما يحيط به من الاحوال حتى يصير كأنه شاهد ثم ينشئ له مثال لذة أو ألم فى المستقبل يحاكى ما ذهب به الماضى ويهمز النفس فى طلبه أو الهرب منه فتلجأ الى الفكر فى تدبير الوسيلة اليه

على هذه القوى الثلاث مستوى سعادة الانسان ومنها ينبوع بلائه

فمن الناس معتدل الذكر هادئ الخيال صحيح الفكر ينظر مثلا فى حال مسرف تفرق ماله فى غير نافع وضاقت يده عما يقيم معيشته فيذكر ألما لحاجة مضت ثم يتخيل المال ومنافعه وما تتمتع به النفس من اللذة به سواء فى سد حاجاته أو فى دفع الالم الذى يحدثه مشهد الفاقة فى غيره باعطاء المضطر ما يذهب بضرورته ثم يتخيل ذلك المال آتيا من وجوهه التى لا يتعلق بها حق من حقوق غيره وعند ذلك يوجه فكره لطلب الوسيلة

اليه من تلك الوجوه بالعمل القويم فى استخدام ما وهبه الله من القوى فى نفسه وما سخره له من قوى الكون المحيط به

ومن الناس منحرف عن سنن الاعتدال يرى مالا ممثلا فى يد غيره فيتذكر لذة ماضية أصابها بمثل هذا المال ويعظم له الخيال لذة مثلها فى المستقبل ولا يزال يعظم فى تلك اللذة والتمتع بها حتى يقع ظل الخيال على طريق الفكر فيستر عنه ما طاب من وجوه الكسب وانما يعمد الى استعمال قوته أو حيلته فى سلب المال من يد مالكه لينفقه فيما تخيل من المنفعة فيكون قد عطل بذلك قواه الموهوبة له وأخل بالامن الذى أفاضه الله بين عباده ومن سنة الاعتداء فلا يسهل عليه ولا على غيره الوصول الى الراحة من أعمال المقترفين لمثل عمله وخفيف من النظر فى أعمال البشر يجليها جميعها على نحو ما يناى المثالين فلقوة الذاكرة وضعفها وحدة الخيال واعتداله واعوجاج الفكر واستقامته أعظم أثر فى التمييز بين النافع والضار فى أشخاص الاعمال وللامزجة والأجواء وما يحتف بالشخص من أهل وعشيرة ومعاشرين مدخل عظيم فى التخيل والفكر بل وفى التذكر

فالناس متفقون على أن من الاعمال ما هو نافع ومنها ما هو ضار وبعبارة أخرى منها ما هو حسن ومنها ما هو قبيح ومن عقلائهم وأهل النظر الصحيح والمزاج المعتدل منهم من يمكنه إصابة وجه الحق فى معرفة ذلك ومتفقون كذلك على أن الحسن ما كان أدوم فائدة وان كان مؤلما فى الحال وأن القبيح ما جر الى مفسدة فى انتظام الخاص بالشخص أو الشامل له ولمن يتصل به وان عظمت لذته الحاضرة ولكنهم يختلفون فى النظر الى

كل

كل عمل بعينه اختلافهم فى أمزجتهم وسحنهم ومناشئهم وجميع مايكتنف بهم فلذلك ضربوا الى الشر فى كل وجه وكل يظن أنه انما يطلب نافعا ويتقى ضارا فالعقل البشرى وحده ليس فى استطاعته أن يبلغ بصاحبه مافيه سعادته فى هذه الحياة اللهم الا فى قليل ممن لم يعرفهم الزمن فان كان لهم من الشأن العظيم مابه عرفهم أشار اليهم الدهر بأصابع الاجيال وقد سبقت الاشارة اليهم فيما مر

وليست عقول الناس سواء فى معرفة الله تعالى ولا فى معرفة حياة بعد هذه الحياة فهم وان اتفقوا فى الخضوع لقوة أسمى من قواهم وشعر معظمهم بيوم بعد هذا اليوم ولكن أفسدت الوثنية عقولهم وانحرفت بها عن مسالك السعادة فليس فى سعة العقل الانسانى فى الافراد كافة أن يعرف من الله مايجب أن يعرف ولا أن يفهم من الحياة الآخرة ما ينبغى أن يفهم ولا أن يقرر لكل نوع من الاعمال جزاءه فى تلك الدار الآخرة وانما قد تيسر ذلك لقليل ممن اختصه الله بكمال العقل ونور البصيرة وان لم ينل شرف الاقتداء بهدى نبوى ولو بلغه لكان أسرع الناس الى اتباعه وهؤلاء ربما يصلون بأفكارهم الى العرفان من وجه غير ما يليق فى الحقيقة أن ينظر منه الى الجلال الالهى

ثم من أحوال الحياة الأخرى ما لا يمكن لعقل بشرى أن يصل اليه وحده وهو تفصيل اللذائذ والآلام وطرق المحاسبة على الاعمال ولو بوجه ما ومن الاعمال مالا يمكن أن يعرف وجه الفائدة فيه لا فى هذه الحياة ولا فيما بعدها كصور العبادات كما ترى فى أعداد الركعات وبعض الاعمال فى الحج فى الديانة الاسلامية وكبعض الاحتفالات فى الديانة الموسوية

وضروب التوسل والزهادة فى الديانة العيسوية كل ذلك مما لا يمكن للعقل البشرى أن يستقل بمعرفة وجه الفائدة فيه ويعلم الله أن فيه سعادته لهذا كله كان العقل الانسانى محتاجا فى قيادة القوى الادراكية والبدنية الى ماهو خير له فى الحياتين الى معين يستعين به فى تحديد أحكام الاعمال وتعيين الوجه فى الاعتقاد بصفات الألوهية ومعرفة ما ينبغى أن يعرف من أحوال الآخرة وبالجملة فى وسائل السعادة فى الدنيا والآخرة ولا يكون لهذا المعين سلطان على نفسه حتى يكون من بنى جنسه ليفهم منه أو عنه ما يقول وحتى يكون ممتازا على سائر الافراد بأمر فائق على ما عرف فى العادة وما عرف فى سنة الخليقة ويكون بذلك مبرهنا على أنه يتكلم عن الله الذى يعلم مصالح العباد على ماهى عليه ويعلم صفاته الكمالية وما ينبغى أن يعرف منها والحياة الآخرة وما أعدّ فيها فيكون الفهم عنه والثقة بأنه يتكلم عن العليم الخبير معينا للعقل على ضبط ما تشتت عليه أو درك ما ضعف عن ادراكه وذلك المعين هو النبىّ

النبوّة تحدّد ما ينبغى أن يلحظ فى جانب واجب الوجود من الصفات وما يحتاج اليه البشر كافة من ذلك وتشير الى خاصتهم بما يمكن لهم أن يفضلوا به غيرهم فى مقامات عرفانهم لكنها لا تحتم الا ما فيه الكفاية للعامة فجاءت النبوّات مطالبة بالاعتقاد بوجود الله وبوحدانيته وبالصفات التى أثبتناها على الوجه الذى بيناه وأرشدت الى طرق الاستدلال على ذلك فوجوب المعرفة على هذا الوجه المخصوص وحسن المعرفة وحظر الجهالة أو الجحود بشىء مما أوجبه الشرع فى ذلك وقبحه مما لا يعرف الا من طريق الشرع معرفة تطمئن بها النفس ولو استقل

عقل بشرى بذلك لم يكن على الطريق المطلوب من الجزم واليقين والاقناع الذى هو عماد الطمأنينة فان زيد على ذلك أن العرفان على ما بينه الشرع يستحق المثوبة المعينة فيه وضده يستحق العقوبة التى نص عليها كانت طريق معرفة الوجوب شرعية محضة غير أن ذلك لا ينافى أن معرفة الله على هذه الصفة حسنة فى نفسها وانما جاء الشرع مبينا للواقع فهو ليس محدث الحسن ونصوصه تؤيد ذلك وأذكر مثالا من كثير قال تعالى على لسان يوسف أأرباب متفرقون خير أم الله الواحد القهار يشير بذلك اشارة واضحة الى أن تفرق الآلهة يفرق بين البشر فى وجهة قلوبهم الى أعظم سلطان يتخذونه فوق قوتهم وهو يذهب بكل فريق الى التعصب لما وجه قلبه اليه وفى ذلك فساد نظامهم كما لا يخفى أما اعتقاد جميعهم باله واحد فهو توحيد لمنازع نفوسهم الى سلطان واحد يخضع الجميع لحكمه وفى ذلك نظام أخوتهم وهى قاعدة سعادتهم وإليها مآلهم فيما اعتقدوا ان طال الزمان فكما جاء الشرع طالبا بالاعتقاد جاء هاديا بالوجه الحسن فيه

النبوة تحدد أنواع الاعمال التى تناط بها سعادة الانسان فى الدارين وتطالبه عن الله بالوقوف عند الحدود التى حددتها وكثيرا ما تبين له مع ذلك وجوه الحسن أو القبح فيما أمر به أو نهى عنه فوجوب عمل من المأمور به أو الندب اليه وحظر عمل أو كراهته من المنهى عنه على الوجه الذى حددته الشريعة وعلى أنه مثاب عليه بأجر كذا ومجازى عليه بعقوبة كذا مما لا يستقل العقل بمعرفته بل طريقة معرفته شرعية وهو لا ينافى أيضا أن يكون المأمور به حسنا فى ذاته بمعنى أنه مما يؤدى الى منفعة دنيوية أو أخروية

باعتبار أثره فى أحوال المعيشة أو فى صحة البدن أو فى حفظ النفس أو المال أو العرض أو فى زيادة تعلق القلب بالله جل شأنه كما هو مفصل فى الاحكام الشرعية وقد يكون من الاعمال ما لا يمكن درك حسنه ومن المنهيات ما لا يعرف وجه قبحه وهذا النوع لا حسن له الا الامر ولا قبح الا النهى والله أعلم

الرسالة العامة

نريد من الرسالة العامة بعثة الرسل لتبليغ شئ من العقائد والاحكام عن الله خالق الانسان وموفيه ما لا غنى له عنه كما وفى غيره من الكائنات سداد حاجاتها وبقاء وجودها على القدر الذى حدد لها فى رتبة نوعها من الوجود والكلام فى هذا البحث من وجهين الاول وهو أيسرهما على المتكلم وجه أن الاعتقاد ببعثة الرسل ركن من أركان الايمان فيجب على كل مؤمن ومؤمنة أن يعتقد بأن الله أرسل رسلا من البشر مبشرين بثوابه ومنذرين بعقابه قاموا بتبليغ أممهم ما أمرهم بتبليغه من تنزيه لذاته وتبيين لسلطانه القاهر على عباده وتفصيل لاحكامه فى فضائل أعمال وصفات يطالبهم بها وفى مثالب فعال وخلائق ينهاهم عنها وأن يعتقد بوجوب تصديقهم فى أنهم يبلغون ذلك عن الله ووجوب الاقتداء بهم فى سيرهم والائتمار بما أمروا به والكف عما نهوا عنه وأن يعتقد بأن منهم من أنزل الله عليه كتبا تشتمل على ما أراد أن يبلغوه من الخبر عنه ومن الحدود والاحكام التى علم الخير لعباده فى الوقوف عندها وأن هذه الكتب التى أنزلت عليهم حق وأن يؤمن بأنهم مؤيدون من العناية الالهية بما لا يعهد للعقول

ولا

ولا للاستطاعة البشرية وأن هذا الأمر الفائق لمعروف البشر هو المعجزة الدالة على صدق النبي في دعواه فمتى ادّعى الرسول النبوّة واستدل عليها بالمعجزة وجب التصديق برسالته

ومن لوازم ذلك بالضرورة وجوب الاعتقاد بعلو فطرتهم وصحة عقولهم وصدقهم في أقوالهم وأمانتهم في تبليغ ما عهد اليهم أن يبلغوه وعصمتهم من كل ما يشوه السيرة البشرية وسلامة أبدانهم مما تنبو عنه الابصار وتنفر منه الاذواق السليمة وأنهم منزهون عما يضاد شيأ من هذه الصفات المتقدمة وأن أرواحهم ممدودة من الجلال الالهي بما لا يمكن معه لنفس إنسانية أن تسطو عليها سطوة روحانية أما فيما عدا ذلك فهم بشر يعتريهم ما يعترى سائر أفراده يأكلون ويشربون وينامون ويسهون وينسون فيما لا علاقة له بتبليغ الاحكام ويمرضون وتمتد اليهم أيدى الظلمة وينالهم الاضطهاد وقد يقتلون

المعجزة ليست من نوع المستحيل عقلا فان مخالفة السير الطبيعي المعروف في الايجاد مما لم يقم دليل على استحالته بل ذلك مما يقع كما يشاهد في حال المريض يمتنع عن الاكل مدة لو لم يأكل فيها وهو صحيح لمات مع وجود العلة التى تزيد الضعف وتساعد الجوع على الاتلاف فان قيل إن ذلك لا بد أن يكون تابعا لناموس آخر طبيعي قلنا إن واضع النواميس هو موجد الكائنات فليس من المحال عليه أن يضع نواميس خاصة بخوارق العادات غاية ما في الامر أننا لا نعرفها ولكنا نرى آثرها على يد من اختصه الله بفضل من عنده على أننا بعد الاعتقاد بأن صانع الكون قادر مختار يسهل علينا

العلم بأنه لا يمتنع عليه أن يحدث الحادث على أى هيئة وتابعا لأى سبب اذا سبق فى علمه أنه يحدثه كذلك

المعجزة لابد أن تكون مقرونة بالتحدى عند دعوى النبوة وظهورها من البراهين المثبتة لنبوة من ظهرت على يده لان النبى يستند اليها فى دعواه أنه مبلغ عن الله فاصدار الله لها عند ذلك يعد تأييدا منه له فى تلك الدعوى ومن المحال على الله أن يؤيد الكاذب فان تأييد الكاذب تصديق له وتصديق الكاذب كذب وهو محال على الله فمتى ظهرت المعجزة وهى مما لا يقدر عليه البشر وقارن ظهورها دعوى النبوة علم بالضرورة أن الله ما أظهرها الا تصديقا لمن ظهرت على يده وان كان هذا العلم قد يقارنه الانكار مكابرة

وأما السحر وأمثاله فان سلم أن مظاهره فائقة عن آثار الاجسام والجسمانيات فهى لا تعلو عن متناول القوى الممكنة فلا يقارب المعجزة فى شئ

أما وجوب تلك الصفات المتقدمة للانبياء فلأنهم لو انحطت فطرهم عن فطر أهل زمانهم أو تضاءلت أرواحهم لسلطان نفوس أخر أو مس عقولهم شئ من الضعف لما كانوا أهلا لهذا الاختصاص الالهى الذى يفوق كل اختصاص اختصاصهم بوحيه والكشف لهم عن أسرار علمه ولو لم تسلم أبدانهم عن المنفرات لكان انزعاج النفس لمرآهم حجة للمنكر فى انكار دعواهم ولو كذبوا أو خانوا أو قبحت سيرتهم لضعفت الثقة بهم ولكانوا مضلين لا مرشدين فتذهب الحكمة من بعثتهم والامر كذلك لو أدركهم السهو أو النسيان فيما عهد اليهم تبليغه من العقائد والاحكام

أما وقوع الخطأ منهم فيما ليس من الحديث عن الله ولا له مدخل فى التشريع فجوزه بعضهم والجمهور على خلافه وما ورد من مثل أن النبى صلى الله عليه وسلم نهى عن تأبير النخل ثم أباحه لظهور أثره فى الاثمار فانما فعله عليه الصلاة والسلام ليعلم الناس أن ما يتخذونه من وسائل الكسب وطرق الصناعات فهو موكول لمعارفهم وتجاربهم ولا حظر عليهم فيه مادامت الشرائع مرعية والفضائل محمية وما حكاه الله من قصة آدم وعصيانه بالاكل من الشجرة فما خفى فيه سر النهى عن الاكل والمؤاخذة عليه وغاية ما علمناه من حكمته أنه كان سببا لعمارة الارض ببنى آدم كأن النهى والاكل رمزان الى طورين من أطوار آدم عليه السلام أو مظهران من مظاهر النوع الانسانى فى الوجود والله أعلم ومن العسر إقامة الدليل العقلى أو اصابة دليل شرعى يقطع بما ذهب اليه الجمهور

حاجة البشر الى الرسالة

سبق لك فى الفصل السابق ما يهم الكلام عليه من الوجه الاول وهو وجه ما يجب على المؤمن اعتقاده فى الرسل والكلام فى هذا الفصل موجه ان شاء الله الى بيان الحاجة اليهم وهو معترك الافهام ومزلة الاقدام ومزدحم الكثير من الافكار والاوهام ولسنا بصدد الاتيان بما قال الاولون ولا عرض ما ذهب اليه الآخرون ولكنا نلزم ما التزمنا فى هذه الوريقات من بيان المعتقد والذهاب اليه من أقرب الطرق من غير نظر الى ما مال اليه المخالف أو استقام عليه الموافق اللهم الا إشارة من طرف خفى أو إلماعا لا يستغنى عنه القول الجلى

والكلام في بيان الحاجة الى الرسل مسلكان ﴿ الاول ﴾ وقد سبق الاشارة اليه يبتدئ من الاعتقاد ببقاء النفس الانسانية بعد الموت وأن لها حياة أخرى بعد الحياة الدنيا تتمتع فيها بنعيم أو تشقى فيها بعذاب أليم وأن السعادة والشقاء في تلك الحياة الباقية معقودان بأعمال المرء في حياته الفانية سواء كانت تلك الاعمال قلبية كالاعتقادات والمقاصد والارادات أو بدنية كأنواع العبادات والمعاملات

اتفقت كلمة البشر موحدين ووثنيين مليين وفلاسفة الا قليلا لا يقام لهم وزن على أن لنفس الانسان بقاء تحيا به بعد مفارقة البدن وأنها لا تموت موت فناء وانما الموت المحتوم هو ضرب من البطون والخفاء وان اختلفت منازعهم في تصوير ذلك البقاء وفيما تكون عليه النفس فيه وتباينت مشاربهم في طرق الاستدلال عليه فمن قائل بالتناسخ في أجساد البشر أو الحيوان على الدوام ومن ذاهب الى أن التناسخ ينتهي عندما تبلغ النفس أعلى مراتب الكمال ومنهم من قال انها متى فارقت الجسد عادت الى تجردها عن المادة حافظة لما فيه لذتها أو ما به شقوتها ومنهم من رأى أنها تتعلق بأجسام أثيرية ألطف من هذه الاجسام المرئية وكان اختلاف المذاهب في كنه السعادة والشقاء الاخرويين وفيما هو متاع الحياة الآخرة وفي الوسائل التي تعد للنعيم أو تبعد عن النكال الدائم وتضارب آراء الامم فيه قديما وحديثا مما لا تكاد تحصى وجوهه

هذا الشعور العام بحياة بعد هذه الحياة المنبث في جميع الانفس عالمها وجاهلها وحشيها ومستأنسها باديها وحاضرها قديمها وحديثها لا يمكن أن يعد ضلة عقلية أو نزغة وهمية وانما هو من الالهامات التي اختص

بها هذا النوع فكما ألهم الانسان أن عقله وفكره هما عماد بقائه فى هذه الحياة الدنيا وإن شذ أفراد منه ذهبوا الى أن العقل والفكر ليسا بكافيين للارشاد فى عمل ما أو الى أنه لا يمكن للعقل أن يوقن باعتقاد ولا للفكر أن يصل الى مجهول بل قالوا أن لا وجود للعالم الا فى اختراع الخيال وانهم شاكون حتى فى أنهم شاكون ولم يطعن شذوذ هؤلاء فى صحة الالهام العام المشعر لسائر أفراد النوع أن الفكر والعقل هما ركن الحياة وأس البقاء الى الأجل المحدود كذلك قد ألهمت العقول وأشعرت النفوس أن هذا العمر القصير ليس هو منتهى ما للانسان فى الوجود بل الانسان ينزع هذا الجسد كما ينزع الثوب عن البدن ثم يكون حيا باقيا فى طور آخر وان لم يدرك كنهه ذلك إلهام يكاد يزاحم البديهة فى الجلاء يشعر كل نفس أنها خلقت مستعدة لقبول معلومات غير متناهية من طرق غير محصورة شيقة الى لذائذ غير محدودة ولا واقفة عند غاية مهيأة لدرجات من الكمال لا تحددها أطراف المراتب والغايات معرضة لآلام من الشهوات ونزعات الاهواء ونزوات الامراض على الاجساد ومصارعة الاجواء والحاجات وضروب من مثل ذلك لا تدخل تحت عد ولا تنتهى عند حد إلهام يستلفتها بعد هذا الشعور الى أن واهب الوجود للانواع انما قدر الاستعداد بقدر الحاجة فى البقاء ولم يعهد فى تصرفه العبث والكيل الجزاف فما كان استعداده لقبول ما لا يتناهى من معلومات وآلام ولذائذ وكمالات لا يصح أن يكون بقاؤه قاصرا على أيام أو سنين معدودات

شعور يهيج بالارواح الى تحسس هذا البقاء الابدى وما عسى أن تكون

عليه متى وصلت اليه وكيف الاهتداء وأين السبيل وقد غاب المطلوب وأعوز الدليل شعورنا بالحاجة إلى استعمال عقولنا فى تقويم هذه المعيشة القصيرة الامد لم يكفنا فى الاستقامة على المنهج الاقوم بل لزمتنا الحاجة الى التعليم والارشاد وقضاء الازمنة والاعصار فى تقويم الانظار وتعديل الافكار وإصلاح الوجدان وتثقيف الاذهان ولا نزال الى الآن من هم هذه الحياة الدنيا فى اضطراب لا ندرى متى نخلص منه وفى شوق الى طمأنينة لا نعلم متى ننتهى اليها

هذا شأننا فى فهم عالم الشهادة فماذا نؤمل من عقولنا وأفكارنا فى العلم بما فى عالم الغيب هل فيما بين أيدينا من الشاهد معالم نهتدى بها الى الغائب وهل فى طرق الفكر ما يوصل كل أحد الى معرفة ما قدر له فى حياة يشعر بها وبأن لا مندوحة عن القدوم عليها ولكن لم يوهب من القوة ما ينفذ الى تفصيل ما أعد له فيها والشؤن التى لا بد أن يكون عليها بعد مفارقة ما هو فيه أو الى معرفة بيد من يكون تصريف تلك الشؤن هل فى أساليب النظر ما يأخذ بأن الى اليقين بما نتعاطاه من الاعتقادات والاعمال وذلك الكون مجهول لديك وتلك الحياة فى غاية الغموض بالنسبة اليك كلا فان الصلة بين العالمين تكاد تكون منقطعة فى نظر العقل ومرامى المشاعر ولا اشتراك بينهما الا فيك أنت فالنظر فى المعلومات الحاضرة لا يوصل الى اليقين بحقائق تلك العوالم المستقبلة

أفليس من حكمة الصانع الحكيم الذى أقام أمر الانسان على قاعدة الارشاد والتعليم الذى خلق الانسان وعلمه البيان علمه الكلام للتفاهم والكتاب للتراسل أن يجعل من مراتب الانفس البشرية مرتبة يعدلها

بمحض فضله بعض من يصطفيه من خلقه وهو أعلم حيث يجعل رسالته
عيزهم بالفطر السليمة و يبلغ بأرواحهم من الكمال ما يليقون معه
للاستشراق بأنوار علمه والامانة على مكنون سره مما لو انكشف لغيرهم
انكشافه لهم لفاضت له نفسه أو ذهبت بعقله جلالته وعظمه فيشرفون
على الغيب باذنه و يعلمون ماسيكون من شأن الناس فيه ويكونون فى
مراتبهم العلوية على نسبة من العالمين نهاية الشاهد و بداية الغائب
فهم فى الدنيا كأنهم ليسوا من أهلها وهم وفد الآخرة فى لباس من
ليس من سكانها ثم يتلقون من أمره أن يحدثوا عن جلاله وما خفى على
العقول من شؤن حضرته الرفيعة بما يشاء أن يعتقده العباد فيه وما قدر
أن يكون له مدخل فى سعادتهم الاخروية وأن يبينوا للناس من أحوال
الآخرة ما لابد لهم من علمه معبرين عنه بما تحتمله طاقة عقولهم ولا يبعد
عن متناول أفهامهم وأن يبلغوا عنه شرائع عامة تحدد لهم سيرهم
فى تقويم نفوسهم وكبح شهواتهم وتعلمهم من الاعمال ما هو مناط سعادتهم
وشقائهم فى ذلك الكون المغيب عن مشاعرهم بتفصيله اللاصق علمه
بأعماق ضمائرهم فى إجماله ويدخل فى ذلك جميع الاحكام المتعلقة
بكليات الاعمال ظاهرة و باطنة ثم يؤيدهم بما لا تبلغه قوى البشر من
الآيات حتى تقوم بهم الحجة ويتم الاقناع بصدق الرسالة فيكونون بذلك
رسلا من لدنه الى خلقه مبشرين ومنذرين

لا ريب أن الذى أحسن كل شئ خلقه وأبدع فى كل كائن صنعه وجاد على
كل حى بما اليه حاجته ولم يحرم من رحمته حقيرا ولا جليلا من خلقه
يكون من رأفته بالنوع الذى أجاد صنعه وأقام له من قبول العلم ما يقوم

مقام المواهب التى اختص بها غيره أن ينقذه من حيرته و يخلصه من التخبط فى أهم حياتيه والضلال فى أفضل حاليه

يقول قائل ولم لم يودع فى الغرائز ما يحتاج اليه من العلم ولم يضع فيها الانقياد الى العمل وسلوك الطريق المؤدية الى الغاية فى الحياة الآخرة وما هذا النحو من جانب الرحمة فى الهداية والتعليم وهو قول يصدر عن شطط العقل والغفلة عن موضوع البحث وهو النوع الانسانى ذلك النوع على ما به وما دخل فى تقويم جوهره من الروح المفكر وما اقتضاه ذلك من الاختلاف فى مراتب الاستعداد باختلاف أفراده وأن لا يكون كل فرد منه مستعدا لكل حال بطبعه وأن يكون وضع وجوده على عماد البحث والاستدلال فلو ألهم حاجاته كما تلهم الحيوانات لم يكن هو ذلك النوع بل كان إما حيوانا آخر كالنحل والنمل أو ملكا من الملائكة ليس من سكان هذه الارض

﴿المسلك الثانى﴾ فى بيان الحاجة الى الرسالة يأخذ من طبيعة الانسان نفسه أرتنا الايام غابرها وحاضرها أن من الناس من يختزل نفسه من جماعة البشر و ينقطع الى بعض الغابات أو الى رؤس الجبال و يستأنس الى الوحش و يعيش عيش الاوابد من الحيوان يتغذى بالاعشاب وجذور النبات و يأوى الى الكهوف والمغاور و يتقى بعض العوادى عليه بالصخور والاشجار و يكتفى من الثياب بما يخصفه من ورق الشجر أو جلود ما يهلك من حيوان البر ولا يزال كذلك حتى يفارق الدنيا ولكن مثل هذا شأن النحلة تنفرد عن الدبر وتعيش عيشة لا تتفق مع ما قدر لنوعه. وإنما الانسان نوع من تلك الانواع التى غرز فى طبعها أن تعيش

مجتمعة وان تعددت فيها الجماعات على أن يكون لكل واحد من الجماعة عمل يعود على المجموع في بقائه وللمجموع من العمل ما لا غنى للواحد عنه في نمائه وبقائه وأودع في كل شخص من أشخاصها شعورا ما بحاجته الى سائر أفراد الجماعة التي يشملها اسم واحد وتاريخ وجود الانسان شاهد بذلك فلا حاجة الى الاطالة في بيانه وكفاك من الدليل على أن الانسان لا يعيش الا في جملة ما وهبه من قوة النطق فلم يخلق لسانه مستعدا لتصوير المعاني في الالفاظ وتأليف العبارات الا لاشتداد الحاجة به الى التفاهم وليس الاضطرار الى التفاهم بين اثنين أو أكثر الا الشهادة بأن لا غنى لاحدهم عن الآخر

حاجة كل فرد من الجماعة الى سائرها مما لا يشتبه فيه وكلما كثرت مطالب الشخص في معيشته ازدادت به الحاجة الى الايدي العاملة فتمتد الحاجة وعلى أثرها الصلة من الاهل الى العشيرة ثم الى الامة والى النوع بأسره . وأيامنا هذه شاهدة على أن الصلة التابعة للحاجة قد تعم النوع كما لا يخفى . هذه الحاجة خصوصا في الامة التي حققت عنوانها الفاصلات وعلائق ميزتها عمن سواها حاجة في البقاء حاجة في التمتع بمزايا الحياة حاجة في جلب الرغائب ودفع المكاره من كل نوع

لو جرى أمر الانسان على أساليب الحكمة في غيره [illegible] من أفضل عوامل المحبة بين أفراده حاملا يشعر كل نفس أن بقاءها مرتبط ببقاء الكل . فالكل منها بمنزلة بعض قواها المسخرة لمنافعها ودرء مضارها والمحبة عماد السلم ورسول السكينة الى القلوب هي الدافع لكل من المتحابين على العمل لمصلحة الآخر الناهض بكل منهما للمدافعة عنه في حالة

الخطر فكان من شأن المحبة أن تكون حفاظ النظام الامم وروح البقائها وكان من حالها أن تكون ملازمة للحاجة على مقتضى سنة الكون فان المحبة حاجة لنفسك الى من تحب أو ما تحب فان اشتدت كانت ولعا وعشقا

لكن كان من قوانين المحبة أن تنشأ وتدوم بين متحابين اذا كانت الحاجة الى ذات المحبوب أو ما هو فيها لا يفارقها ولا يكون هذا النوع منها فى الانسان الا اذا كان منشؤه أمرا فى روح المحبوب وشمائله التى لا تفارق ذاته حتى تكون لذة الوصول فى نفس الاتصال لا فى عارض يتبعه فاذا عرض التبادل والتعاوض ولوحظ فى العلاقة بينهما تحولت المحبة الى رغبة فى الانتفاع بالعوض وتعلقت بالمنتفع به لا بمصدر الانتفاع وقام بين الشخصين مقام المحبة إما سلطان القوة أو ذلة المخافة أو الادهان والخديعة من الجانبين

يحب الكلب سيده ويخلص له ويدافع عنه دفاع المستميت لما يرى أنه مصدر الاحسان اليه فى سد اعوزه فصورة شبعه وريه وحمايته مقرونة فى شعوره بصورة من يكفلها له فهو يتوقع فقدها بفقده فيحرص عليه حرصه على حياته ولو أنه انتقل من حوزته الى حوزة آخر وغاب عنه السنين ثم رآه معرضا للخطر ما عادت اليه تلك الصور يصل بعضها بعضا واندفع الى خلاصه بما تمكنه القوة

ذلك لان الالهام الذى هدى به شعور الكلب ليس مما تتسع به المذاهب فوهمه يتردد بين الاحسان ومصدره وليس له وراءهما مذهب فحاجته فى

ستدعو زه هي حاجته الى القائم بأمره فيحبه محبته لنفسه ولا يخص منها شوب التعاوض فى الخدمة

أما الانسان وما أدراك ماهو فليس أمره على ذلك ليس ممن يلهم ولا يتعلم ولا ممن يشعر ولا يتفكر بل كان كماله النوعى فى اطلاق مداركه عن القيد ومطالبه عن النهايات وتسليمه على صغره الى العالم الاكبر على جلالته وعظمه يصارعه بعوامله وهي غير محصورة حتى يعتصر منه منافعه وهي غير محدودة وابداعه من قوى الادراك والعمل ما يعينه على المغالبة ويمكنه من المطالبة بسعيه ورأيه ويتبع ذلك أن يكون له فى كل كائن مما يصل اليه لذة وبجوار كل لذة ألم ومخافة فلا تنتهي رغائبه الى غاية ولا تقف مخاوفه عند نهاية (إن الانسان خلق هلوعا اذا مسه الشر جزوعا واذا مسه الخير منوعا) تفاوتت أفراده فى مواهب الفهم وفى قوى العمل وفى الهمة والعزم فمنهم المقصر ضعفا أو كسلا المتطاول فى الرغبة شهوة وطمعا يرى فى أخيه أنه العون له على ما يريد من شؤن وجوده لكنه يذهب من ذلك الى تخيل اللذة فى الاستئثار بجميع ما فى يده ولا يقتنع بمعاوضته فى ثمرة من ثمار عمله وقد يجد اللذة فى أن يتمتع ولا يعمل ويرى الشقى أن يقيم مقام العمل إعمال الفكر فى استنباط ضروب الحيل ليتمتع وان لم ينفع ويغصب حيوانه حتى يتخيل له أن لا ضير عليه أن انفرد بالوجود عمن يطلب مغالبته ولا يبالى بارساله الى عالم العدم بعد سلبه فكلما حثه الذكر والخيال الى دفع مخافة أو الوصول الى لذيذ فتح له الفكر بابا من الحيلة أو هيأ له وسيلة لاستعمال القوة فقام التناهب مقام التواهب

وحل الشقاق محل الوفاق وصار الضابط لسيرة الانسان إما الحيلة وإما القهر

هل وقف الهوى بالانسان عند التنافس فى اللذائذ الجسدانية وتجالد أفراده طمعا فى وصول كل الى ما يظنه غاية مطلبه وان لم تكن له غاية كلا ولكن قدر له أن تكون له لذائذ روحانية وكان من أعظم همه أن يشعر بالكرامة له فى نفس غيره ممن تجمعه معهم جامعة ما حسبما يمتد اليه نظره وقد بلغت هذه الشهوة حدا من الانفس كادت تتغلب على جميع الشهوات وأخذت لذة الوصول اليها من الارواح مكانا كاد لا تصعد اليه سائر اللذات وهى من أفضل العوامل فى إحراز الفضائل وتمكين الصلات بين الافراد والامم لو صرفت فيما سيقت لاجله ولكن انحرف بها السبيل كما انحرف بغيرها للاسباب التى أشرنا اليها من التفاوت فى مراتب الادراك والهمة والعزيمة حتى خيل لكثير من العقلاء أن يسعى الى إعلاء منزلته فى القلوب باخافة الامن وازعاج الساكن واشعار القلوب رهبة المخافة لا تهيب الحرمة

هل يمكن مع هذا أن يستقيم أمر جماعة بنى نظامهم وعلق بقاؤهم فى الحياة على تعاونهم ورفد بعضهم بعضا فى الاعمال أولا تكون هذه الافاعيل السابق ذكرها سببا فى تفانيهم لا ريب أن البقاء على تلك الاحوال من ضروب المحال فلا بد للنوع الانسانى فى حفظ بقائه من المحبة أو ما ينوب منابها

لجأ بعض أهل البصيرة فى أزمنة مختلفة الى العدل وظنوا كما ظن بعض العارفين ونطق به فى كلمة جليلة أن العدل نائب المحبة ثم لا يخلو القول

من حكمة ولكن من الذى يضع قواعد العدل ويحمل الكافة على رعايتها . قيل ذلك هو العقل فكما كان الفكر والذكر والخيال ينابيع الشقاء كذلك تكون وسائل السعادة وفيها مستقر السكينة وقد رأينا أن اعتدال الفكر وسعة العلم وقوة العقل وأصالة الحكم تذهب بكثير من الناس الى ما وراء حجب الشهوات وتعلو بهم فوق ما تخيله المخاوف فيعرفون لكل حق حرمته ويميزون بين لذة ما يفنى ومنفعة ما يبقى وقد جاء منهم أفراد فى كل أمة وضعوا أصول الفضيلة وكشفوا وجوه الرذيلة وقسموا أعمال الانسان الى ما تحضر لذته وتسوء عاقبته وهو ما يجب اجتنابه والى ما قد يشق احتماله ولكن تسر مغباته وهو ما يجب الاخذ به ومنهم من أنفق فى الدعوة الى رأيه نفسه وماله وقضى شهيد إخلاصه فى دعوة قومه إلى ما يحفظ نظامهم فهؤلاء العقلاء هم الذين يضعون قواعد العدل وعلى أهل السلطان أن يحملوا الكافة على رعايتها وبذلك يستقيم أمر الناس

هذا قول لا يجافى الحق ظاهره ولكن هل سمع فى سيرة الانسان وهل ينطبق على سنته أن يخضع كافة أفراده أو الغالب منهم لرأى العاقل لمجرد أنه صواب وهل كفى فى إقناع جماعة منه كشعب أو أمة قول عاقلهم إنهم مخطئون وإن الصواب فى غير ما يذهبون اليه وإن أقام على ذلك من الادلة ما هو أوضح من الضياء وأجلى من ضرورة المحبة للبقاء كلا لم يعرف ذلك فى تاريخ الانسان ولا هو مما ينطبق على سنته فقد تقدم لنا أن مهب الشقاء هو تفاوت الناس فى الادراك وهم مع ذلك يدعون المساواة فى العقول والتقارب فى الاصول ولا يعرف جمهورهم من حال الفاضل إلا كما يعرف

من أمر الجاهل ومن لم يكن فى مرتبتك من العقل لم يذق مذاقك من الفضل فجرّد البيان العقلى لا يدفع نزاعا ولا يردّ طمأنينة وقد يكون القائم على ما وضع من شريعة العقل ممن يزعم أنه أرفع من واضعها فيذهب بالناس مذهب شهواته فتذهب حرمتها ويتهدّم بناؤها ويفقد ما قصد بوضعها

أضف الى ما سبق من لوازم نزعات الفكر ونزغات الاهواء شعورا هو ألصق بالغريزة البشرية وأشد لزوما لها كل انسان مهما علا فكره وقوى عقله أو ضعفت فطنته وانحطت فطرته يجد من نفسه أنه مغلوب لقوة أرفع من قوته وقوة ما أنس منه الغلبة عليه مما حوله وأنه محكوم بارادة تصرّفه وتصرف ما هو فيه من العوالم فى وجوه قد لا تعرفها معرفة العارفين ولا تنطرف اليها ارادة المختارين تشعر كل نفس أنها مسوقة لمعرفة تلك القوة العظمى فتطلبها من حسها تارة ومن عقلها أخرى ولا سبيل لها الا الطريق التى حددت لنوعها وهى طريق النظر فذهب كل فى طلبها وراء رائد الفكر فنهم من تأولها ببعض الحيوانات لكثرة نفعها أو شدة ضررها ومنهم من تمثلت له فى بعض الكواكب لظهور أثرها ومنهم من حببته الاشجار والاحجار لاعتبارات له فيها ومنهم من تبدت له آثار قوى مختلفة فى أنواع متفرقة تتماثل فى أفراد كل نوع وتتخالف بتخالف الانواع فجعل لكل نوع إلها ولكن كلما رق الوجدان ولطفت الاذهان ونفذت البصائر ارتفع الفكر وجلت النتائج فوصل من بلغ به علمه بعض المنازل من ذلك الى معرفة هذه القدرة الباهرة واهتدى الى أنها قدرة واجب الوجود غير أن من أسرار الجبروت ما غمض

عليه فلم يسلم من الخبط فيه ثم لم يكن له من الميزة الفائقة فى قومه ما يحملهم على الاهتداء بهديه فبقى الخلاف ذائعا والرشد ضائعا اتفق الناس فى الاذعان لما فاق قدرهم وعلا متناول استطاعتهم لكنهم اختلفوا فى فهم ما ألجأتهم الفطرة الى الاذعان له اختلافا كان أشد أثرا فى التقاطع بينهم وإثارة أعاصير الشقاق فيهم من اختلافهم فى فهم النافع والضار لغلبة الشهوات عليهم

ان كان الانسان قد فطر على أن يعيش فى جملة ولم يمنح مع تلك الفطرة ما منحه النحل وبعض أفراد النمل مثلا من الالهام الهادى الى ما يلزم لذلك وانما ترك الى فكره يتصرف به على نحو ما سبق كما فطر على الشعور بقاهر تنساق نفسه بالرغم عنها الى معرفته ولم يفض عليه مع ذلك الشعور عرفانه بذات ذلك القاهر ولا صفاته وانما ألقى به فى مطارح النظر تحمله الافكار فى مجاريها أو ترمى به الى حيث يدرى ولا يدرى وفى كل ذلك الويل على جامعته والخطر على وجوده أفهل منى هذا النوع بالنقص ورزئ بالقصور عن مثل ما بلغه أضعف الحيوانات وأحطها فى منازل الوجود نعم هو كذلك لولا ما أتاه الصانع الحكيم من ناحية ضعفه

الانسان عجيب فى شأنه يصعد بقوة عقله الى أعلى مراتب الملكوت ويطاول بفكره أرفع معالم الجبروت ويسامى بقوته ما يعظم عن أن يسامى من قوى الكون الاعظم ثم يصغر ويتضاءل وينحط الى أدنى دركات من الاستكانة والخضوع متى عرض له أمر ما لم يعرف سببه ولم يدرك منشأه ذلك السر عرفه المستبصرون واستشعرته نفوس الناس أجمعين

من ذلك الضعف قيد الى هداه ومن تلك الضعة أخذ بيده الى شرف

سعادته أكمل الواهب الجواد لجملته مااقتضت حكمته فى تخصيص نوعه بما يميزه عن غيره أن ينقص من أفراده وكما جاد على كل شخص بالعقل المصرف للحواس لينظر فى طلب اللقمة وستر العورة والتوقى من الحر والبرد جاد على الجملة بما هو أمس بالحاجة فى البقاء وآثر فى الوقاية من غوائل الشقاء وأحفظ لنظام الاجتماع الذى هو عماد كونه بالاجماع من عليه بالنائب الحقيقى عن المحبة بل الراجع بها الى النفوس التى أقفرت منها لم يخالف سنته فيه من بناء كونه على قاعدة التعليم والارشاد غير أنه أتاه مع ذلك من أضعف الجهات فيه وهى جهة الخضوع والاستكانة فأقام له من بين أفراده مرشدين هادين وميزهم من بينها بخصائص فى أنفسهم لا يشركهم فيها سواهم وأيد ذلك زيادة فى الاقناع بآيات باهرات تملك النفوس وتأخذ الطريق على سوابق العقول فيستخذى الطامح ويذل الجامح ويصطدم بها عقل العاقل فيرجع الى رشده وينبهر لها بصر الجاهل فيرتد عن غيه يطرقون القلوب بقوارع من أمر الله ويدهشون المدارك ببواهر من آياته فيحيطون العقول بما لا مندوحة عن الاذعان له ويستوى فى الركون لما يجيئون به المالك والمملوك والسلطان والصعلوك والعاقل والجاهل والمفضول والفاضل فيكون الاذعان لهم أشبه بالاضطرارى منه بالاختيارى النظرى يعلمونهم ماشاء الله أن يصلح به معاشهم ومعادهم وما أراد أن يعلموه من شؤن ذاته وكمال صفاته وأولئك هم الانبياء والمرسلون فبعثة الانبياء صلوات الله عليهم من متممات كون الانسان ومن أهم حاجاته فى بقائه ومنزلتها من النوع منزلة العقل من

الشخص نعمة أتمها الله لكيلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل وسنتكلم عن وظيفتهم بنوع من التفصيل فيما بعد

امكان الوحي

الكلام في امكان الوحي يأتي بعد تعريفه لنتصور المعنى الذي يراد منه ولنعرّف المعنى الحاصل بالمصدر فيفهم معنى المصدر نفسه ولا يعنينا ما تثيره الالفاظ في الاذهان ولنذكر من اللغة ما يناسبه . يقال وحيت اليه وأوحيت اذا كلمته بما تخفيه عن غيره والوحي مصدر من ذلك والمكتوب والرسالة وكل ما ألقيته الى غيرك ليعلمه ثم غلب فيما يلقى الى الانبياء من قبل الله وقيل الوحي إعلام في خفاء ويطلق ويراد به الموحى وقد عرّفوه شرعا أنه كلام الله تعالى المنزل على نبي من أنبيائه أما نحن فنعرّفه على شرطنا بأنه عرفان يجده الشخص من نفسه مع اليقين بأنه من قبل الله بواسطة أو بغير واسطة والاول بصوت يتمثل لسمعه أو بغير صوت و يفرق بينه وبين الالهام بأن الالهام وجدان تستيقنه النفس وتنساق الى ما يطلب على غير شعور منها من أين أتى وهو أشبه بوجدان الجوع والعطش والحزن والسرور أما إمكان حصول هذا النوع من العرفان (الوحي) وانكشاف ما غاب من مصالح البشر عن عامتهم لمن يختصه الله بذلك وسهولة فهمه عند العقل فلا أراه مما يصعب ادراكه الا على من لا يريد أن يدرك ويحب أن يرغم نفسه الفهامة على أن لا تفهم نعم يوجد في كل أمة وفي كل زمان أناس يقذف بهم الطيش والنقص في العلم الى ما وراء سواحل اليقين فيسقطون في غمرات من الشك في كل ما لم يقع تحت حواسهم الخمس بل قد يدركهم

الريب فيما هو من متناولها كما سبقت الاشارة اليه فكأنهم بسقطتهم هذه انحطوا الى ما هو أدنى من مراتب أنواع أخرى من الحيوان فينسون العقل وشؤنه وسره ومكنونه ويجدون فى ذلك لذة الاطلاق عن قيود الاوامر والنواهى بل عن محابس الحشمة التى تضمهم الى التزام ما يليق وتحجزهم عن مقارفة مالا يليق كما هو حال غير الانسان من الحيوان فاذا عرض عليهم شئ من الكلام فى النبوّات والاديان وهمّ من أنفسهم هامّ بالاصغاء دافعوه بما أوتوا من الاختيار فى النظر وانصرفوا عنه وجعلوا أصابعهم فى آذانهم حذر أن يخالط الدليل أذهانهم فيلزمهم العقيدة وتتبعها الشريعة فيحرموا اللذة ماذاقوا وما يحبون أن يتذوّقوا وهو مرض فى الانفس والقلوب يستشفى منه بالعلم ان شاء الله

قلت أيّ استحالة فى الوحى وأن ينكشف لفلان مالا ينكشف لغيره من غير فكر ولا ترتيب مقدمات مع العلم أن ذلك من قبل واهب الفكر ومانح النظر متى حفت العناية من ميزته هذه النعمة

مما شهدت به البديهة أن درجات العقول متفاوتة يعلو بعضها بعضا وأن الادنى منها لا يدرك ما عليه الأعلى إلا على وجه من الاجمال وأن ذلك ليس لتفاوت المراتب فى التعليم فقط بل لا بد معه من التفاوت فى الفطر التى لا مدخل فيها لاختيار الانسان وكسبه ولا شبهة فى أن من النظريات عند بعض العقلاء ما هو بديهيّ عند من هو أرقى منه ولا تزال المراتب ترتقى فى ذلك الى مالا يحصره العدد وان من أرباب الهمم وكبار النفوس ما يرى البعيد عن صغارها قريبا فيسعى اليه ثم يدركه والناس دونه ينكرون بدايته ويعجبون لنهايته ثم يألفون ما صار اليه كأنه من المعروف الذى

لاينازع والظاهر الذى لايجاحد فاذا أنكره منكر ثاروا عليه ثورتهم في بادئ الامر على من دعاهم اليه ولا يزال هذا الصنف من الناس على قلته ظاهرا في كل أمة الى اليوم

فاذا سلم «ولا محيص عن التسليم» بما أسلفنا من المقدمات فمن ضعف العقل والنكول عن النتيجة اللازمة لمقدماتها عند الوصول اليها أن لا يسلم بأن من النفوس البشرية ما يكون لها من نقاء الجوهر بأصل الفطرة ما تستعد به من محض الفيض الالهى لأن تتصل بالافق الاعلى وتنتهى من الانسانية الى الذروة العليا وتشهد من أمر الله شهود العيان ما لم يصل غيرها الى تعقله أو تحسسه بعصى الدليل والبرهان وتتلقى عن العليم الحكيم ما يعلو وضوحا على ما يتلقاه أحدنا عن أساتذة التعاليم ثم تصدر عن ذلك العلم الى تعليم ما علمت ودعوة الناس الى ما حملت على ابلاغه اليهم وأن يكون ذلك سنة لله في كل أمة وفي كل زمان على حسب الحاجة يظهر برحمته من يختصه بعنايته ليفى للاجتماع بما يضطر اليه من مصلحته الى أن يبلغ النوع الانسانى أشده وتكون الأعلام التى نصبها لهدايته الى سعادته كافية في ارشاده فتختم الرسالة ويغلق باب النبوة كما سنأتى عليه في رسالة نبينا صلى الله عليه وسلم

أما وجود بعض الارواح العالية وظهورها لاهل تلك المرتبة السامية فمما لا استحالة فيه بعد ما عرفنا من أنفسنا وأرشدنا اليه العلم قديمه وحديثه من اشتمال الوجود على ما هو ألطف من المادة وان غيب عنا فأى مانع من أن يكون بعض هذا الوجود اللطيف مشرقا الشئ من العلم

الالهى وأن يكون لنفوس الانبياء إشراف عليه فاذا جاء به الخبر الصادق حملنا على الاذعان بصحته

أما تمثل الصوت وأشباح لتلك الارواح فى حس من اختصه الله بتلك المنزلة فقد عهد عند أعداء الانبياء ما لا يبعد عنه فى بعض المصابين بأمراض خاصة على زعمهم فقد سلموا أن بعض معقولاتهم يتمثل فى خيالهم ويصل الى درجة المحسوس فيصدق المريض فى قوله انه يرى ويسمع بل يجالد ويصارع ولا شئ من ذلك فى الحقيقة بواقع فان جاز التمثل فى الصور المعقولة ولا منشأ لها الا فى النفس وان ذلك يكون عند عروض عارض على المخ فلم لا يجوز تمثل الحقائق المعقولة فى النفوس العالية وأن يكون ذلك لها عندما تنزع عن عالم الحس وتتصل بحظائر القدس وتكون تلك الحال من لواحق صحة العقل فى أهل تلك الدرجة لاختصاص مزاجهم بما لا يوجد فى مزاج غيرهم وغاية ما يلزم عنه أن يكون لعلاقة أرواحهم بأبدانهم شأن غير معروف فى تلك العلاقة من سواهم وهو مما يسهل قبوله بل يتحتم لان شأنهم فى الناس أيضا غير الشؤن المألوفة وهذه المغايرة من أهم ما امتاز وا به وقام منها الدليل على رسالتهم والدليل على سلامة شهودهم وصحة ما يحدثون عنه أن أمراض القلوب تشفى بدوائهم وان ضعف العزائم والعقول يتبدل بالقوة فى أممهم التى تأخذ عقالهم ومن المنكر فى البديهة أن يصدر الصحيح من معتل ويستقيم النظام بمختل

أما أرباب النفوس العالية والعقول السامية من العرفاء ممن لم تدن مراتبهم من مراتب الانبياء ولكنهم رضوا أن يكونوا لهم أولياء وعلى

شرعهم

شرعهم ودعوتهم أمناء فكثير منهم نال حظه من الانس بما يقارب تلك الحال فى النوع أو الجنس لهم مشارفة فى بعض أحوالهم على شىء من عالم الغيب ولهم مشاهد صحيحة فى عالم المثال لا تنكر عليهم لتحقق حقائقها فى الواقع فهم لذلك لا يستبعدون شيأ مما يحدث به عن الانبياء صلوات الله عليهم ومن ذاق عرف ومن حرم انحرف ودليل صحة ما يحدثون به وعنه ظهور الاثر الصالح منهم وسلامة أعمالهم مما يخالف شرائع أنبيائهم وطهارة فطرهم مما ينكره العقل الصحيح أو يمجه الذوق السليم واندفاعهم بباعث من الحق الناطق فى سرائرهم المتلألئ فى بصائرهم الى دعوة من يحفُّ بهم الى ما فيه خير العامة وترويح قلوب الخاصة ولا يخلو العالم من متشبهين بهم ولكن ما أسرع ما ينكشف حالهم ويسوء مآلهم ومآل من غُرَّ روابه ولا يكون لهم الا سوء الاثر فى تضليل العقول وفساد الاخلاق وانحطاط شأن القوم الذين رزؤا بهم الا أن يتداركهم الله بلطفه فتكون كلمتهم الخبيثة كشجرة خبيثة اجتثت من فوق الارض مالها من قرار فلم يبق بين المنكرين لاحوال الانبياء ومشاهدهم وبين الاقرار بامكان ما أنبؤا به بل وبوقوعه الا حجاب من العادة وكثيرا ما حجب العقول حتى عن ادراك أمور معتادة

وقوع الوحى والرسالة

الدليل على رسالة نبى وصدقه فيما يحكى عن ربه ظاهر للشاهد الذى يرى حاله ويبصر ما آتاه الله من الآيات البينات ويحقق بالعيان ما يغنيه عن البيان كما سلف فى الوجه الاول من الكلام على الرسالة أما الغائب عن

زمن البعثة فدليلها التواتر وهو كما بين فى علم آخر رواية خبر عن مشهود
من جماعة يستحيل تواطؤهم على الكذب وآيته قهر النفس على اليقين
بما جاء فيه كالاخبار بوجود مكة أو بان للصين عاصمة تسمى بكين وسبب
استحالة التواطؤ على الكذب استيفاء الخبر لشرائط معلومة وخلوه من
عوارض تضعف الثقة به ومرجع كل ذلك الى العدد وبعد الراوى عن
التشيع لمضمون الخبر
لا نزاع بين العقلاء فى أن هذا النوع من الاخبار يحصل اليقين بالمخبر به
وانما النزاع فى اعتبارات تتعلق به ومن الانبياء ما استوفى الخبر عنهم شرائط
التواتر كابراهيم وموسى وعيسى ومما جاء به الخبر أنهم لم يكونوا فيمن بعثوا
بينهم بالأقوى سلطانا ولا بالأكثر مالا ولم يختصهم أحد بالعناية بهم
لتعليمهم علم ما دعوا اليه وغاية الامر أنهم لم يكونوا من الادنين الذين تعافهم
النفوس وتنبو عنهم الانظار ومع ذلك واستحكام السلطان لغيرهم ووفرة
المال لديه واستعلائه عليهم بما كسب من العلم قاموا بدعوة الى الله على
رغم الملوك وأجنادهم وصاحوا بهم صيحة زلزلتهم فى عروشهم وادعوا
أنهم يبلغون عن خالق السموات والارض ما أراد شرعه للناس وأقاموا
من الدليل ما تصاغرت دونه قوة المعارضة ثم ثبتت فى الكون شرائعهم
ثبات الغريزة فى الفطر وكان الخير لأممهم فى اتباع ما جاؤا به حالفتهم القوة
واحتضنتهم السعادة ما كانوا قائمين عليها ورزأهم الضعف وغالبهم
الشقاء ما انحرفوا عنها وخلطوا فيها فهذا وما أقاموه من الادلة عند
التحدى لا يصح معه فى العقل أن يكونوا كاذبين فى حديثهم عن الله ولا فى
دعواهم أنه كان يوحى اليهم ما شرعوا للناس على أن من لا يعتقد ما يقول

لا يبقى لمقاله أثر فى العقول والباطل لا بقاء له الا فى الغفلة عنه كالنبات الخبيث فى الارض الطيبة ينبت باهمالها وينمو باغفالها فاذا لامستها عناية الزارع غلبه الخصب وذهب به الزكاء ولكن تلك الديانات التى جاء بها أولئك الانبياء قامت فى العالم الانسانى ماشاء الله مما قدر لها مقام سائر قواه مع كثرة المعارضين وقوة سلطان المغالبين فلا يمكن أن يكون أسها الكذب ودعامتها الحيلة وكلامنا هذا فى جوهرها الذى يلوح دائما فى خلال ما ألحق بها المبتدعون أما بقية الرسل ممن يجب علينا الايمان بهم فيكفى فى إثبات نبوتهم إثبات رسالة نبينا صلى الله عليه وسلم فقد أخبرنا برسالتهم وهو الصادق فيما بلغ به وسنأتى على الكلام فى رسالة نبينا محمد صلى الله عليه وسلم فى باب على حدته ان شاء الله

وظيفة الرسل عليهم السلام

تبين مما تقدم فى حاجة العالم الانسانى الى الرسل أنهم من الامم بمنزلة العقول من الاشخاص وأن بعثتهم حاجة من حاجات العقول البشرية قضت رحمة المبدع الحكيم بسدادها ونعمة من نعم واهب الوجود ميز بها الانسان عن بقية الكائنات من جنسه ولكنها حاجة روحية وكل مالامس الحس منها فالقصد فيه الى الروح وتطهيرها من دنس الاهواء الضالة أو تقويم سلطانها أو إيداعها ما فيه سعادتها فى الحياتين أما تفصيل طرق المعيشة والحذق فى وجوه الكسب وتطاول شهوات العقل الى درك ما أعد للوصول اليه من أسرار العلم فذلك مما لا دخل للرسالات فيه إلا من وجه العظة العامة والارشاد الى الاعتدال فيه وتقرير أن شرط ذلك

كله أن لا يحدث ريبا فى الاعتقاد بأن للكون إلها واحدا قادرا عالما حكيما متصفا بما أوجب الدليل أن يتصف به وباستواء نسبة الكائنات اليه فى أنها مخلوقة له وصنع قدرته وإنما تفاوتها فيما اختص به بعضها من الكمال وشرطه أن لا ينال شئ من تلك الاعمال السابقة أحدا من الناس بشر فى نفسه أو عرضه أو ماله بغير حق يقتضيه نظام عامة الامة على ما حدد فى شريعتها

يرشدون العقل الى معرفة الله وما يجب أن يعرف من صفاته ويبينون الحد الذى يجب أن يقف عنده فى طلب ذلك العرفان على وجه لا يشق عليه الاطمئنان اليه ولا يرفع ثقته بما آتاه الله من القوة يجمعون كلمة الخلق على إله واحد لا فرقة معه ويخلون السبيل بينهم وبينه وحده وينهضون نفوسهم الى التعلق به فى جميع الاعمال والمعاملات ويذكرونهم بعظمته بفرض ضروب من العبادات فيما اختلف من الاوقات تذكرة لمن ينسى وتزكية مستمرة لمن يخشى تقوى ما ضعف منهم وتزيد المستيقن يقينا

يبينون للناس ما اختلفت عليه عقولهم وشهواتهم وتنازعته مصالحهم ولذاتهم فيفصلون فى تلك المخاصمات بأمر الله الصادع ويؤيدون بما يبلغون عنه ما تقوم به المصالح العامة ولا تفوت به المنافع الخاصة يعودون بالناس الى الالفة ويكشفون لهم سر المحبة ويستلفتونهم الى أن فيها انتظام شمل الجماعة ويفرضون عليهم مجاهدة أنفسهم ليستوطنوها قلوبهم ويشعروها أفئدتهم يعلمونهم لذلك أن يرعى كل حق الاخر وإن كان لا يغفل حقه وأن لا يتجاوز فى الطلب حده وأن

يعين قويهم ضعيفهم ويمدّ غنيهم فقيرهم ويهدى راشدهم ضالهم ويعلم عالمهم جاهلهم

يضعون لهم بأمر الله حدودا عامة يسهل عليهم أن يردّوا اليها أعمالهم كاحترام الدماء البشرية الا بحق مع بيان الحق الذى تهدر له وحظر تناول شيء مما كسبه الغير الا بحق مع بيان الحق الذى يبيح تناوله واحترام الاعراض مع بيان ما يباح وما يحرم من الأبضاع ويشرعون لهم مع ذلك أن يقوّموا أنفسهم بالملكات الفاضلة كالصدق والامانة والوفاء بالعقود والمحافظة على العهود والرحمة بالضعفاء والاقدام على نصيحة الاقوياء والاعتراف لكل مخلوق بحقه بلا استثناء يحملونهم على تحويل أهوائهم عن اللذائذ الفانية الى طلب الرغائب السامية آخذين فى ذلك كله بطرف من الترغيب والترهيب والانذار والتبشير حسبما أمرهم الله جل شأنه

يفصلون فى جميع ذلك للناس ما يؤهلهم لرضا الله عنهم وما يعرّضهم لسخطه عليهم ثم يحيطون بيانهم بنبإ الدار الآخرة وما أعدّ الله فيها من الثواب وحسن العقبى لمن وقف عند حدوده وأخذ بأوامره وتجنب الوقوع فى محاظيره يعلمونهم من أنباء الغيب ما أذن الله لعباده فى العلم به مما لو صعب على العقل اكتناهه لم يشق عليه الاعتراف بوجوده

بهذا تطمئن النفوس وتثلج الصدور ويعتصم المرزوء بالصبر انتظارا لجزيل الاجر أو ارضاء لمن بيده الامر وبهذا ينحل أعظم مشكل فى الاجتماع الانسانى لا يزال العقلاء يجهدون أنفسهم فى حله الى اليوم

ليس من وظائف الرسل ما هو من عمل المدرّسين ومعلمى الصناعات فليس

عما جاؤا به تعليم التاريخ ولا تفصيل ما يحويه عالم الكواكب ولا بيان ما اختلف من حركاتها ولا ما استكن من طبقات الارض ولا مقادير الطول فيها والعرض ولا ما تحتاج اليه النباتات فى نموها ولا ما تفتقر اليه الحيوانات فى بقاء أشخاصها وأنواعها وغير ذلك مما وضعت له العلوم وتسابقت فى الوصول الى دقائقه الفهوم فان ذلك كله من وسائل الكسب وتحصيل طرق الراحة هدى الله اليه البشر بما أودع فيهم من الادراك يزيد فى سعادة المحصلين ويقضى فيه بالنكد على المقصرين ولكن كانت سنة الله فى ذلك أن يتبع طريقة التدرج فى الكمال وقد جاءت شرائع الانبياء بما يحمل على الاجمال بالسعى فيه وما يكفل التزامه بالوصول الى ما أعد الله له الفطر الانسانية من مراتب الارتقاء

أما ما ورد فى كلام الانبياء من الاشارة الى شىء مما ذكرنا فى أحوال الافلاك أو هيئة الارض فانما يقصد منه النظر الى ما فيه من الدلالة على حكمة مبدعه أو توجيه الفكر الى الغوص لادراك أسراره وبدائعه ولغتهم عليهم الصلاة والسلام فى مخاطبة أممهم لا يجوز أن تكون فوق ما يفهمون والا ضاعت الحكمة فى ارسالهم ولهذا قد يأتى التعبير الذى سيق الى العامة بما يحتاج الى التأويل والتفسير عند الخاصة وكذلك ما وجه الى الخاصة يحتاج الى الزمان الطويل حتى يفهمه العامة وهذا القسم أقل ما ورد فى كلامهم

على كل حال لا يجوز أن يقام الدين حاجزا بين الارواح وبين ما ميزها الله به من الاستعداد للعلم بحقائق الكائنات الممكنة بقدر الامكان بل يجب أن يكون الدين باعثا لها على طلب العرفان مطالبا لها باحترام البرهان

فارضا

فارضا عليها أن تبذل ما تستطيع من الجهد فى معرفة ما بين يديها من العوالم ولكن مع التزام القصد والوقوف فى سلامة الاعتقاد عند الحد ومن قال غير ذلك فقد جهل الدين وجنى عليه جناية لا يغفرها له رب الدين

اعتراض مشهور

قال قائل ان كانت بعثة الرسل حاجة من حاجات البشر وكمالا لنظام اجتماعهم وطريقا لسعادتهم الدنيوية والاخروية فما بالهم لم يزالوا أشقياء عن السعادة بعداء يتخالفون ولا يتفقون يتقاتلون ولا يتناصرون يتناهبون ولا يتناصفون كل يستعد للوثبة ولا ينتظر الا مجىء النوبة حشو جلودهم الظلم وملء قلوبهم الطمع عد أهل كل ذى دين دينهم حجة لمقارعة من خالفهم فيه واتخذوا منه سببا جديدا للعداوة والعدوان فوق ما كان من اختلاف المصالح والمنافع بل أهل الدين الواحد قد تنشق عصاهم وتختلف مذاهبهم فى فهمه وتتفارق عقولهم فى عقائدهم ويثور بينهم غبار الشر وتتشبث أهواؤهم بالفتن فيسفكون دماءهم ويخربون ديارهم الى أن يغلب قويهم ضعيفهم فيستقر الامر للقوة لا للحق والدين فها هو الدين الذى تقول إنه جامع الكلمة ورسول المحبة كان سببا فى الشقاق ومضرما للضغينة فما هذه الدعوى وما هذا الاثر

نقول فى جوابه نعم كل ذلك قد كان ولكن بعد زمن الانبياء وانقضاء عهدهم ووقوع الدين فى أيدى من لا يفهمه أو يفهمه ويغلو فيه أو لا يغلو فيه ولكن لم يمتزج حبه بقلبه أو امتزج بقلبه حب الدين ولكن

ضاقت سعة عقله عن تصريفه تصريف الانبياء أنفسهم أو الخيرة من تبعتهم و إلا فقل لنا أى نبى لم يأت أمته بالخير الجم والفيض الأعم ولم يكن دينه وافيا بجميع ما كانت تمس اليه حاجتها فى أفرادها وجملتها
أظن أنك لا تخالفنا فى أن الجمهور الاعظم من الناس بل الكل الا القليل لا يفهمون فلسفة أفلاطون ولا يقيسون أفكارهم وآراءهم بمنطق ارسطو بل لو عرض أقرب المعقولات الى العقول عليهم بأوضح عبارة يمكن أن يأتى بها معبر لما أدركوا منها إلا خيالا لا أثر له فى تقويم النفس ولا فى اصلاح العمل فاعتبر هذه الطبقات فى حالها التى لا تفارقها من تلاعب الشهوات بها ثم انصب نفسك واعظا بينها فى تخفيف بلاء ساقه النزاع اليها فأى الطرق أقرب اليك فى مهاجمة شهواتهم وردها الى الاعتدال فى رغائبها من البديهى أنك لا تجد الطريق الاقرب فى بيان مضار الاسراف فى الرغب وفوائد القصد فى الطلب وما يحو نحو ذلك مما لا يصل اليه أرباب العقول السامية الا بطويل النظر وانما تجد أقصد الطرق وأقومها أن تأتى اليه من نافذة الوجدان المطلة على سر القهر المحيط به من كل جانب فتذكره بقدرة الله الذى وهبه ماوهب الغالب عليه فى أدنى شؤنه المحيط بما فى نفسه الآخذ بأزمة هممه وتسوق اليه من الامثال فى ذلك ما يقرب الى فهمه ثم تروى له ما جاء فى الدين المعتقد به من مواعظ وعبر ومن سير السلف فى ذلك الدين ما فيه أسوة حسنة وتنعش روحه بذكر رضا الله اذا استقام وسخطه عليه اذا تقحم عند ذلك يخشع منه القلب وتدمع العين ويستخذى الغضب وتخمد الشهوة والسامع لم يفهم من ذلك كله الا أنه يرضى الله وأولياءه اذا أطاع ويسخطهم اذا عصى ذلك هو المشهود

من حال البشر غابرهم وحاضرهم ومنكره يسم نفسه أنه ليس منهم كم سمعنا أن عيونا بكت وزفرات صعدت وقلوبا خشعت لواعظ الدين . لكن هل سمعت بمثل ذلك بين يدى نصاح الادب وزعماء السياسة . متى سمعنا أن طبقة من طبقات الناس يغلب الخير على أعمالهم لما فيه من المنفعة لعامتهم أو خاصتهم وينفى الشر من بينهم لما يجلبه عليهم من مضار ومهالك هذا أمر لم يعهد فى سير البشر ولا ينطبق على فطرهم وإنما قوام الملكات هو العقائد والتقاليد ولا قيام للامرين الا بالدين فعامل الدين هو أقوى العوامل فى أخلاق العامة بل والخاصة وسلطانه على نفوسهم أعلى من سلطان العقل الذى هو خاصة نوعهم

قلنا إن منزلة النبوات من الاجتماع هى منزلة العقل من الشخص أو منزلة العلم المنصوب على الطريق المسلوك بل نصعد الى ما فوق ذلك ونقول منزلة السمع والبصر أليس من وظيفة الباصرة التمييز بين الحسن والقبيح من المناظر وبين الطريق السالمة السالك والمعابر الوعرة ومع ذلك تجد بعض البصير استعمل بصره فيتردى فى هاوية يهلك فيها وعيناه سليمتان تلمعان فى وجهه . يقع ذلك لطيش أو إهمال أو غفلة أو لجاج وعناد . وقد يقوم من العقل والحس ألف دليل على مضرة شىء ويعلم ذلك الباغى فى رأيه من أعمال النفس ثم يخالف تلك الدلائل الظاهرة ويقتحم المكروه لقضاء شهوة اللجاج أو نحوهما ذلك ووقوع مثل ذلك لا ينتقص من قدر الحس أو العقل فيما خلق لاجله . كذلك الرسل عليهم السلام أعلام هداية نصبها الله على سبيل النجاة فمن الناس من اهتدى بها فانتهى الى غايات السعادة ومنهم من غلط فى فهمها أو انحرف عن هديها فانكب فى

مهاوى الشقاء فالدين هادو النقص يعرض لمن دعوا الى الاهتداء به ولا يطعن نقصهم فى كماله واشتداد حاجتهم اليه «يضل به كثيرا ويهدى به كثيرا وما يضل به الا الفاسقين» ألا إن الدين مستقر السكينة وملجأ الطمأنينة به يرضى كل بما قسم له وبه يدأب عامل حتى يبلغ الغاية من عمله وبه تخضع النفوس الى أحكام السنن العامة فى الكون وبه ينظر الانسان الى من فوقه فى العلم والفضيلة والى من دونه فى المال والجاه اتباعا لما وردت به الاوامر الالهية . الدين أشبه بالبواعث الفطرية الالهامية منه بالدواعى الاختيارية . الدين قوة من أعظم قوى البشر وانما قد يعرض عليها من العلل ما يعرض لغيرها من القوى وكل ما وجه الى الدين من مثل الاعتراض الذى نحن بصدده فتبعته فى أعناق القائمين عليه الناصبين أنفسهم منصب الدعوة اليه أو المعروفين بأنهم حفظته ورعاة أحكامه وما عليهم فى ابلاغ القلوب بغيتها منه الا أن يهتدوا به ويرجعوا به الى أصوله الطاهرة الاولى ويضعوا عنه أوزار البدع فترجع اليه قوته وتظهر للاعمى حكمته

ربما يقول قائل إن هذه المقابلة بين العقل والدين تميل الى رأى القائلين باهمال العقل بالمرة فى قضايا الدين وبان أساسه هو التسليم المحض وقطع الطريق على أشعة البصيرة أن تنفذ الى فهم ما أودعه من معارف وأحكام . فنقول لو كان الامر كما عساه أن يقال لما كان الدين علما يهتدى به وانما الذى سبق تقريره هو أن العقل وحده لا يستقل بالوصول الى ما فيه سعادة الامم بدون مرشد الهى كما لا يستقل الحيوان فى درك جميع

المحسوسات

المحسوسات بحاسة البصر وحدها بل لابد معها من السمع لادراك المسموعات مثلا كذلك الدين هو حاسة عامة لكشف ما يشتبه على العقل من وسائل السعادات والعقل هو صاحب السلطان فى معرفة تلك الحاسة وتصريفها فيما منحت لاجله والاذعان لما تكشف له من معتقدات وحدود أعمال كيف ينكر على العقل حقه فى ذلك وهو الذى ينظر فى أدلتها ليصل منها الى معرفتها وانها آتية من قبل الله وانما على العقل بعد التصديق برسالة نبى أن يصدق بجميع ما جاء به وان لم يستطع الوصول الى كنه بعضه والنفوذ الى حقيقته ولا يقضى عليه ذلك بقبول ما هو من باب المحال المؤدى الى مثل الجمع بين النقيضين أو بين الضدين فى موضوع واحد فى آن واحد فان ذلك مما تتنزه النبوات عن أن تأتى به فان جاء ما يوهم ظاهره ذلك فى شئ من الوارد فيها وجب على العقل أن يعتقد أن الظاهر غير مراد وله الخيار بعد ذلك فى التأويل مسترشدا ببقية ما جاء على لسان من ورد المتشابه فى كلامه وفى التفويض الى الله فى علمه وفى سلفنا من الناجين من أخذ بالاول ومنهم من أخذ بالثانى

رسالة محمد صلى الله عليه وسلم

ليس من غرضنا فى هذه الوريقات أن نلم بتاريخ الامم عامة وتاريخ العرب خاصة فى زمن البعثة المحمدية لنبين كيف كانت حاجة سكان الارض ماسة الى قارعة تهز عروش الملوك وتزلزل قواعد سلطانهم الغاشم وتخفض من أبصارهم المعقودة بعنان السماء الى من دونهم من

رعاياهم الضعفاء والى نار تنقض من سماء الحق على أدم الانفس البشرية لتأكل ما اعشوشبت به من الاباطيل القاتلة للعقول وصيحة فصحى تزعج الغافلين وترجع بألباب الذاهلين وتنبه المرؤسين الى أنهم ليسوا بأبعد عن البشرية من الرؤساء الظالمين والهداة الضالين والقادة الغادرين وبالجملة تؤب بهم الى رشد يقيم الانسان على الطريق التى سنها الله « انا هديناه السبيل » ليبلغ بسلوكها كماله ويصل على نهجها الى ما أعد فى الدارين له ولكنا نستعير من التاريخ كلمة يفهمها من نظر فيما اتفق عليه مؤرخو ذلك العهد نظر إمعان وإنصاف كانت دولتا العالم دولة الفرس فى الشرق ودولة الرومان فى الغرب فى تنازع وتجالد مستمر دماء بين العالمين مسفوكة وقوى منهوكة وأموال هالكة وظلم من الاحن حالكة ومع ذلك فقد كان الزهو والترف والاسراف والفخفخة والتفنن فى الملاذ بالغة حد مالا يوصف فى قصور السلاطين والامراء والقواد ورؤساء الاديان من كل أمة وكان شره هذه الطبقة من الامم لا يقف عند حد فزادوا فى الضرائب وبالغوا فى فرض الاتاوات حتى أثقلوا ظهور الرعية بمطالبهم وأتوا على ما فى أيديها من ثمرات أعمالها وانحصر سلطان القوى فى اختطاف ما بيد الضعيف وفكر العاقل فى الاحتيال لسلب الغافل وتبع ذلك أن استولى على تلك الشعوب ضروب من الفقر والذل والاستكانة والخوف والاضطراب لفقد الأمن على الارواح والاموال

غمرت مشيئة الرؤساء ارادة من دونهم فعاد هؤلاء كأشباح اللاعب يديرها من وراء حجاب ويظنها الناظر اليها من ذوى الالباب ففقد بذلك

الاستقلال الشخصى وظن أفراد الرعايا أنهم لم يخلقوا الا لخدمة ساداتهم وتوفير لذاتهم كما هو الشأن فى الحيوانات مع من يقتنيها . ضلت السادات فى عقائدها وأهوائها وغلبتها على الحق والعدل شهواتها ولكن بقى لها من قوة الفكر أردأ بقاياها فلم يفارقها الحذر من أن بصيص النور الالهى الذى يخالط الفطر الانسانية قد يفتق الغلف التى أحاطت بالقلوب ويمزق الحجب التى أسدلت على العقول فتهتدى العامة الى السبيل ويثور الجم الغفير على العدد القليل ولذلك لم يغفل الملوك والرؤساء أن ينشؤا سحبا من الأوهام ويهيؤا كسفا من الاباطيل والخرافات ليقذفوا بها فى عقول العامة فيغلظ الحجاب ويعظم الرين ويختنق بذلك نور الفطرة ويتم لهم ما يريدون من المغلوبين لهم وصرح الدين بلسان رؤسائه أنه عدو العقل وعدو كل ما يثمره النظر الا ما كان تفسيرا لكتاب مقدس وكان لهم فى المشارب الوثنية ينابيع لا تنضب ومدد لا ينفد هذه حالة الاقوام كانت فى معارفهم وذلك كان شأنهم فى معايشهم عبيد أذلاء حيارى فى جهالة عمياء اللهم الا بعض شوارد من بقايا الحكمة الماضية والشرائع السابقة آوت الى بعض الاذهان ومعها نقص العلم بالحاضر ونقص العلم بالغابر ثارت الشبهات على أصول العقائد وفروعها وانقلب من الوضع وانعكس من الطبع فكان يرى الدنس فى مظنة الطهارة والشره حيث تنتظر القناعة والدعارة حيث ترجى السلامة والسلام سع قصور النظر عن معرفة السبب وانصرافه لاول وهلة الى أن مصدر كل ذلك هو الدين فاستولى الاضطراب على المدارك وذهب بالناس مذهب الفوضى فى العقل والشريعة معا

وظهرت مذاهب الاباحيين والدهريين فى شعوب متعددة وكان ذلك ويلا عليها فوق ما رزئت به من سائر الخطوب

وكانت الامة العربية قبائل متخالفة فى النزعات خاضعة للشهوات تفخر كل قبيلة فى قتال أختها وسفك دماء أبطالها وسبي نسائها وسلب أموالها تسوقها المطامع الى المعامع وتزين لها السيآت فساد الاعتقادات وقد بلغ العرب من سخافة العقل حدا صنعوا أصنامهم من الحلوى ثم عبدوها فلما جاعوا أكلوها وبلغوا من تضعضع الاخلاق وهنا قتلوا فيه بناتهم تخلصا من عار حياتهن أو تنصلا من نفقات معيشتهن وبلغ الفحش منهم مبلغا لم يعد معه للعفاف قيمة وبالجملة فكانت ربط النظام الاجتماعى قد تراخت عقدها فى كل أمة وانفصمت عراها عند كل طائفة

أفلم يكن من رحمة الله بأولئك الاقوام أن يؤدبهم برجل منهم يوحى اليه رسالته ويمنحه عنايته ويمده من القوة بما يتمكن معه من كشف تلك الغمم التى أظلت رؤس جميع الامم نعم كان ذلك ولله الامر من قبل ومن بعد

فى الليلة الثانية عشرة من ربيع الاول عام الفيل « ٢٠ ابريل سنة ٥٧١ من ميلاد المسيح عليه السلام» ولد محمد بن عبد الله بن عبد المطلب ابن هاشم القرشى بمكة وليدا يتيما توفى والده قبل أن يولد ولم يترك له من المال الا خمس جمال وبعض نعاج وجارية ويروى أقل من ذلك وفى السنة السادسة من عمره فقد والدته أيضا فاحتضنه جده عبد المطلب وبعد سنتين من كفالته توفى جده فتكفله من بعده عمه أبو طالب وكان شهما

كر بما غير أنه كان من الفقر بحيث لا يملك كفاف أهله وكان صلى الله عليه وسلم من بني عمه وصبية قومه كاحدهم على ما به من يتم فقد فيه الابوين معا وفقر لم يسلم منه الكافل والمكفول ولم يقم على تربيته مهذب ولم يعن بتثقيفه مؤدب بين أتراب من نبت الجاهلية وعشراء من حلفاء الوثنية وأولياء من عبدة الاوهام وأقرباء من حفدة الاصنام غير أنه مع ذلك كان ينمو ويتكامل بدنا وعقلا وفضيلة وأدبا حتى عرف بين أهل مكة وهو في ريعان شبابه بالامين أدب الهي لم تجر العادة بأن تزين به نفوس الايتام من الفقراء خصوصا مع فقر القوام فاكتهل صلى الله عليه وسلم كاملا والقوم ناقصون رفيعا والناس منحطون موحدا وهم وثنيون سلما وهم شاغبون صحيح الاعتقاد وهم واهمون مطبوعا على الخير وهم به جاهلون وعن سبيله عادلون

من السنن المعروفة أن يتيما فقيرا أميا مثله تنطبع نفسه بما تراه من أول نشأته الى زمن كهولته ويتأثر عقله بما يسمعه ممن يخالطه لاسيما ان كان من ذوي قرابته وأهل عصبته ولا كتاب يرشده ولا استاذ ينبهه ولا عضد اذا عزم يؤيده فلو جرى الامر فيه على جاري السنن لنشأ على عقائدهم وأخذ بمذاهبهم الى أن يبلغ مبلغ الرجال ويكون للفكر والنظر مجال فيرجع الى مخالفتهم اذا قام له الدليل على خلاف ضلالاتهم كما فعل القليل ممن كانوا على عهده ولكن الامر لم يجر على سنته بل بغضت اليه الوثنية من مبدإ عمره فعاجلته طهارة العقيدة كما بادره حسن الخليقة وما جاء في الكتاب من قوله «ووجدك ضالا فهدى» لا يفهم منه أنه كان على وثنية قبل الاهتداء الى التوحيد

أوعلى غير السبيل القويم قبل الخلق العظيم حاش لله إن ذلك لهو الافك المبين وانما هي الحيرة تلم بقلوب أهل الاخلاص فيما يرجون للناس من الخلاص وطلب السبيل الى ما هدوا اليه من انقاذ الهالكين وإرشاد الضالين وقد هدى الله نبيه الى ما كانت تلمسه بصيرته باصطفائه لرسالته واختياره من بين خلقه لتقرير شريعته

وجد شيأ من المال يسد حاجته « وقد كان له فى الاستزادة منه ما يرفه معيشته » بما عمل لخديجة رضى الله عنها فى تجارتها وبما اختارته بعد ذلك زوجا لها وكان فيما يجتنيه من ثمرة عمله غناء له وعون على بلوغه ما كان عليه أعاظم قومه لكنه لم ترقه الدنيا ولم تغره زخارفها ولم يسلك ما كان يسلكه مثله فى الوصول الى ما ترغبه الانفس من نعيمها بل كلما تقدم به السن زادت فيه الرغبة عما كان عليه الكافة ونما فيه حب الانفراد والانقطاع الى الفكر والمراقبة والتحنث بمناجاة الله تعالى والتوسل اليه فى طلب المخرج من همه الأعظم فى تخليص قومه ونجاة العالم من الشر الذى تولاه الى أن انفتق له الحجاب عن عالم كان يحثه اليه الالهام الالهى وتجلى عليه النور القدسى وهبط عليه الوحى من المقام العلى فى تفصيل ليس هذا موضعه

لم يكن من آبائه ملك فيطالب بما سلب من ملكه وكانت نفوس قومه فى انصراف تام عن طلب مناصب السلطان وفى قناعة بما وجدوه من شرف النسبة الى المكان دل عليهما ما فعل جده عبد المطلب عند زحف أبرهة الحبشى على ديارهم . جاء الحبشى لينتقم من العرب بهدم معبدهم العام وبيتهم الحرام ومنتجع حجيجهم ومستوى العالية من

آلهتهم ومنتهى حجة القرشيين فى مفاخرتهم لبنى قومهم وتقدم بعض جنده فاستاق عددا من الابل فيها لعبد المطلب مائتا بعير وخرج عبد المطلب فى بعض قريش لمقابلة الملك فاستدناه وسأله حاجته فقال هى أن ترد الى مائتى بعير أصبتها لى فلامه الملك على المطلب الحقير وقت الخطب الخطير فأجابه أنا رب الابل أما البيت فله رب يحميه هذا غاية ما ينتهى اليه الاستسلام وعبد المطلب فى مكانه من الرياسة على قريش فأين من تلك المكانة محمد صلى الله عليه وسلم فى حاله من الفقر ومقامه فى الوسط من طبقات أهله حتى ينتجع ملكا أو يطلب سلطانا لامال لاجاه لاجند لاأعوان لاسليقة فى الشعر لابراعة فى الكتاب لاشهرة فى الخطاب لاشئ كان عنده مما يكسب المكانة فى نفوس العامة أو يرقى به الى مقام ما بين الخاصة ماهذا الذى رفع نفسه فوق النفوس ما الذى أعلى رأسه على الرؤس ما الذى سما بهمته على الهمم حتى انتدب نفسه لارشاد الامم وكفالته لهم كشف الغمم بل وإحياء الرمم ما كان ذلك الا ما ألقى الله فى روعه من حاجة العالم الى مقوم لما زاغ من عقائدهم ومصلح لما فسد من أخلاقهم وعوائدهم ما كان ذلك الا وجدانه ريح العناية الالهية ينصره فى عمله ويمده فى الانتهاء الى أمله قبل بلوغ أجله ماهو إلا الوحى الالهى يسعى نوره بين يديه يضئ عليه سبيله ويكفيه مؤنة الدليل ماهو إلا الوعد السماوى قام لديه مقام القائد والجندى أرأيت كيف نهض وحيدا فريدا يدعو الناس كافة الى التوحيد والاعتقاد بالعلى المجيد والكل ما بين وثنية متفرقة ودهرية وزندقة نادى فى الوثنيين بترك أوثانهم ونبذ معبوداتهم وفى المشبهين

المنغمسين فى الخلط بين اللاهوت الأقدس وبين الجسمانيات بالتطهر من تشبيههم وفى الثانوية بافراد إله واحد بالتصرف فى الأكوان ورد كل شئ فى الوجود اليه أهاب بالطبيعيين ليمدوا بصائرهم الى ماوراء حجاب الطبيعة فيتنور واسر الوجود الذى قامت به صاح بذوى الزعامة ليهبطوا الى مصاف العامة فى الاستكانة الى سلطان معبود واحد هو فاطر السموات والارض والقابض على أرواحهم فى هياكل أجسادهم . تناول المنتحلين منهم لمرتبة التوسط بين العباد و بين ربهم الأعلى فبين لهم بالدليل وكشف لهم بنور الوحى أن نسبة أكبرهم الى الله كنسبة أصغر المعتقدين بهم وطالبهم بالنزول عما انتحلوه لانفسهم من المكانات الربانية الى أدنى سلم من العبودية والاشتراك مع كل ذى نفس إنسانية فى الاستعانة برب واحد يستوى جميع الخلق فى النسبة اليه لا يتفاوتون الا فيما افضل به بعضهم على بعض من علم أو فضيلة وخز بوعظه عبيد العادات وأسراء التقليد ليعتقوا أرواحهم مما استعبدوا له و يحلوا أغلالهم التى أخذت بأيديهم عن العمل وقطعتهم دون الامل مال على قراء الكتب السماوية والقائمين على ماأودعته من الشرائع الالهية فبكت الواقفين عند حروفها بغباوتهم وشدد النكير على المحرفين لها الصارفين لالفاظها الى غير ماقصد من وحيها اتباعا لشهواتهم ودعاهم الى فهمها والتحقق بسر علمها حتى يكونوا على نور من ربهم واستلفت كل إنسان الى ما أودع فيه من المواهب الالهية ودعا الناس أجمعين ذكرا وإناثا عامة وسادات الى عرفان أنفسهم وأنهم من نوع خصه الله بالعقل وميزه بالفكر وشرفه بهما وبحرية الارادة فيما يرشده

اليه

اليه عقله وفكره وأن الله عرض عليهم جميع ما بين أيديهم من الاكوان
وسلطهم على فهمها والانتفاع بها بدون شرط ولاقيد الا الاعتدال
والوقوف عند حدود الشريعة العادلة والفضيلة الكاملة وأقدرهم
بذلك على أن يصلوا الى معرفة خالقهم بعقولهم وأفكارهم بدون واسطة
أحد إلا من خصهم الله بوحيه وقد وكل اليهم معرفتهم بالدليل كما كان
الشأن فى معرفتهم لمبدع الكائنات أجمع والحاجة الى أولئك المصطفين
إنما هو فى معرفة الصفات التى أذن الله أن تعلم منه وليست فى الاعتقاد
بوجوده وقرر أن لا سلطان لاحد من البشر على آخر منه الا ما رسمته
الشريعة وفرضه العدل ثم الانسان بعد ذلك يذهب بارادته الى ما سخرت
له بمقتضى الفطرة . دعا الانسان الى معرفة أنه جسم وروح وأنه بذلك
من عالمين متخالفين وان كانا ممتزجين وأنه مطالب بخدمتهما جميعا
وابفاء كل منهما ما اقررت له الحكمة الالهية من الحق . دعا الناس كافة
الى الاستعداد فى هذه الحياة لما سيلاقون فى الحياة الاخرى وبين لهم
أن خير زاد يتزوده العامل هو الاخلاص لله فى العبادة والاخلاص للعباد
فى العدل والنصيحة والارشاد

قام بهذه الدعوة العظمى وحده ولا حول له ولا قوة كل هذا كان منه
والناس أعداء ما أنفوا وان كان خسران الدنيا وحرمان الآخرة
أعداء ما جهلوا وان كان رغد العيش وعزة السيادة ومنتهى السعادة
كل هذا والقوم حواليه أعداء أنفسهم وعبيد شهواتهم لا يفقهون
دعوته ولا يعقلون رسالته عقدت أهداب بصائر العامة منهم باهواء
الخاصة وحجبت عقول الخاصة بغرور العزة عن النظر فى دعوى فقير

أمي مثله لا يرون فيه ما يرفعه الى نصيحتهم والتطاول الى مقاماتهم الرفيعة باللوم والتعنيف

لكنه فى فقره وضعفه كان يقارعهم بالحجة ويناضلهم بالدليل ويأخذهم بالنصيحة ويزعجهم بالزجر وينبههم للعبر ويحوطهم مع ذلك بالموعظة الحسنة كأنما هو سلطان قاهر فى حكمه عادل فى أمره ونهيه أو أب حكيم فى تربية أبنائه شديد الحرص على مصالحهم رؤف بهم فى شدته رحيم فى سلطته . ماهذه القوة فى ذلك الضعف ماهذا السلطان فى مظنة العجز ماهذا العلم فى تلك الأمية ماهذا الرشاد فى غمرات الجاهلية . إن هو الا خطاب الجبروت الاعلى قارعة القدرة العظمى نداء العناية العليا ذلك خطاب الله القادر على كل شئ الذى وسع كل شئ رحمة وعلما . ذلك أمر الله الصادع يقرع الآذان ويشق الحجب ويخرق الغلف وينفذ الى القلوب على لسان من اختاره لينطق به واختصه بذلك وهو أضعف قومه ليقيم من هذا الاختصاص برهانا عليه بعيدا عن الظنة بريأ من التهمه لاتيانه على غير المعتاد بين خلقه . أى برهان على النبوة أعظم من هذا أمي قام يدعو الكاتبين الى فهم مايكتبون ومايقرؤن بعيد عن مدارس العلم صاح بالعلماء ليمحصوا ما كانوا يعلمون . فى ناحية عن ينابيع العرفان جاء يرشد العرفاء ناشئ بين الواهمين هب لتقويم عوج الحكماء غريب فى أقرب الشعوب الى سذاجة الطبيعة وأبعدها عن فهم نظام الخليقة والنظر فى سننه البديعة أخذ يقرر للعالم أجمع أصول الشريعة ويخط للسعادة طرقا لن يهلك سالكها ولن يخلص تاركها ماهذا الخطاب المفحم ماذلك الدليل الملجم . أ أقول

ماهذا بشرا ان هذا إلا ملك كريم لا لا أقول ذلك ولكن أقول كما أمره الله أن يصف نفسه إن هو إلا بشر مثلكم يوحى اليه . نبي صدّق الانبياء ولكن لم يأت في الاقناع برسالته بما يلهي الابصار أو يحير الحواس أو يدهش المشاعر ولكن طالب كل قوة بالعمل فيما أعدّت له واختص العقل بالخطاب وحاكم اليه الخطأ والصواب وجعل في قوة الكلام وسلطان البلاغة وصحة الدليل مبلغ الحجة وآية الحق الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد

القرآن

جاءنا الخبر المتواتر الذي لا تتطرق اليه الريبة أن النبي صلى الله عليه وسلم كان في نشأته وأميته على الحال التي ذكرنا وتواترت أخبار الامم كافة على أنه جاء بكتاب قال انه أنزل عليه وان ذلك الكتاب هو القرآن المكتوب في المصاحف المحفوظ في صدور من عني بحفظه من المسلمين الى اليوم . كتاب حوى من أخبار الامم الماضية ما فيه معتبر للاجيال الحاضرة والمستقبلة نقب على الصحيح منها وغادر الأباطيل التي ألحقتها الاوهام بها ونبه على وجوه العبرة فيها حكى عن الانبياء ما شاء الله أن يقص علينا من سيرهم وما كان بينهم وبين أممهم وبرأهم مما رماهم به أهل دينهم المعتقدون برسالتهم [illegible] عقائدهم وما نقضوا من احكامهم وما حرفوا بالتأويل في كتبهم . وشرع للناس أحكاما تنطبق على مصالحهم وظهرت الفائدة في العمل بها والمحافظة عليها وقام بها العدل وانتظم بها شمل الجماعة . كانت عند حد ما قرره ثم عظمت المضرة في إهمالها والانحراف عنها أو البعد

بها عن الروح الذى أودعته ففاقت بذلك جميع الشرائع الوضعية كما يتبين
للناظر فى شرائع الامم ثم جاء بعد ذلك بحكم ومواعظ وآداب تخشع لها
القلوب وتهش لاستقبالها العقول وتنصرف وراءها الهمم انصرافها
فى السبيل الأمم . نزل القرآن فى عصر اتفق الرواة وتواترت الاخبار
على أنه أرقى الاعصار عند العرب وأغزرها مادة فى الفصاحة وأنه الممتاز
بين جميع ما تقدمه بوفرة رجال البلاغة وفرسان الخطاب وأنفس
ما كانت العرب تتنافس فيه من ثمار العقل ونتائج الفطنة والذكاء هو
الغلب فى القول والسبق الى اصابة مكان الوجدان من القلوب ومقر
الاذعان من العقول وتفانيهم فى المفاخرة بذلك مما لا يحتاج الى الاطالة
فى بيانه

تواتر الخبر كذلك بما كان منهم من الحرص على معارضة النبى صلى الله
عليه وسلم والتماسهم الوسائل قريبها وبعيدها لابطال دعواه وتكذيبه
فى الاخبار عن الله واتيانهم فى ذلك على مبلغ استطاعتهم وكان فيهم
الملوك الذين تحملهم عزة الملك على معاندته والامراء الذين يدعوهم
السلطان الى مناواته والخطباء والشعراء والكتاب الذين يشمخون بأنوفهم
عن متابعته وقد اشتد جميع أولئك فى مقاومته وانهالوا بقواهم عليه
استكبارا عن الخضوع له وتمسكا بما كانوا عليه من أديان آبائهم وحمية
لعقائدهم وعقائد أسلافهم وهو مع ذلك يخطئ آراءهم ويسفه
أحلامهم ويحتقر أصنامهم ويدعوهم الى مالم تعهده أيامهم ولم تخفق
لمثله أعلامهم ولا حجة له بين يدى ذلك كله إلا تحديهم بالاتيان بمثل أقصر
سورة من ذلك الكتاب أو بعشر سور من مثله وكان فى استطاعتهم أن

يجمعوا

يجمعوا اليه من العلماء والفصحاء البلغاء ما شاؤا ليأتوا بشيء من مثل ما أتى به ليبطلوا الحجة ويفحموا صاحب الدعوة

جاءنا الخبر المتواتر أنهم مع طول زمن التحدي ولجاج القوم في التعدي أصيبوا بالعجز ورجعوا بالخيبة وحقت للكتاب العزيز الكلمة العليا على كل كلام وقضى حكمه العلي على جميع الاحكام . أليس في ظهور مثل هذا الكتاب على لسان أمي أعظم معجزة وأدل برهان على أنه ليس من صنع البشر وانما هو النور المنبعث عن شمس العلم الالهي والحكم الصادر عن المقام الرباني على لسان الرسول الأمي صلوات الله عليه

هذا وقد جاء في الكتاب من أخبار الغيب ما صدقته حوادث الكون كالخبر في قوله غلبت الروم في أدنى الارض وهم من بعد غلبهم سيغلبون في بضع سنين وكالوعد الصريح في قوله وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الارض كما استخلف الذين من قبلهم الآية وقد تحقق جميع ذلك وفي القرآن كثير من مثل هذا يحيط به من يتلوه حق تلاوته . ومن الكلام عن الغيب فيه ما جاء في تحدي العرب به واكتفائه في الرجوع عن دعواه بأن يأتوا بسورة من مثله مع سعة البلاد العربية ووفرة سكانها وتباعد أطرافها وانتشار دعوته على لسان الوافدين الى مكة من جميع أرجائها ومع أنه لم يسبق له صلى الله عليه وسلم السياحة في نواحيها والتعرف برجالها وقصور العلم البشري عادة عن الاحاطة بما أودع في قوى أمة عظيمة كالامة العربية فهذا القضاء الحاتم منه بأنهم لن يستطيعوا أن يأتوا بشيء من مثل ما تحداهم به ليس قضاء بشريا ومن الصعب بل من المتعذر أن يصدر عن عاقل التزام كالذي التزمه وشرط

كالذى شرطه على نفسه لغلبة الظن عند من له شئ من العقل أن الارض لاتخلو من صاحب قوة مثل قوته وانما ذلك هو الله المتكلم والعليم الخبير هو الناطق على لسانه وقد أحاط علمه بقصور جميع القوى عن تناول مااستنهضهم له وبلوغ ماحثهم عليه

يقول واهم إن العجز حجة على من عجز فان العجز هى حجة الافحام وإلزام الخصم وقد يلتزم الخصم ببعض المسلمات عنده فيفحم ويعجز عن الجواب فتلزمه الحجة ولكن ليس ذلك بلازم لغيره فمن الممكن أن لا يسلم غيره بما سلمه فلا يفحمه الدليل بل يجد الى ابطاله أقرب سبيل

وهو وهم يضمحل بما قدمناه من البيان اذلا يوجد من المشابهة بين إعجاز القرآن وإفحام الدليل الا أنه يوجد عن كل منهما عجز وشتان بين العجزين وبعد مابين وجهتى الاستدلال فيهما فان إعجاز القرآن برهن على أمر واقعى وهو تقاصر القوى البشرية دون مكانته من البلاغة وقلنا القوى البشرية لأنه جاء بلسان عربى وقد عرف الكتاب عند جميع العرب فى عهد النبوة وكان حال العصر من البلاغة كما ذكرنا وحال القوم فى لغتهم كما بينا ومع ذلك لم يمكن للعرب أن يعارضوه بشئ من مبلغ قوتهم فلا يعقل أن فارسيا أو هنديا أو رومانيا يبلغ من قوة البلاغة فى العربية أن يأتى بما عجز عنه العرب أنفسهم وتقاصر القوى جميعها عن ذلك مع التماثل بين النبى وبينهم فى النشأة والتربية وامتياز الكثير منهم بالعلم والدراسة دليل قاطع على أن الكلام ليس مما اعتيد صدوره عن البشر وهو اختصاص من الله سبحانه لمن جاء على لسانه ثم ماورد فى القرآن من تسجيل العجز عليهم والتعرض للاصطدام بجميع ما

اوتوا

أوتوا من قوة مما يدل على الثقة من أمره مع ما سبق تعداده من الامور التى لا يمكن معها العاقل أن يقف ذلك الموقف مع طول الزمن وانفساح الاجل كل ذلك يدل على أن الناطق هو عالم الغيب والشهادة لا رجل يعظ وينصح على العادة

فثبت بهذه المعجزة العظمى وقام الدليل بهذا الكتاب الباقى الذى لا يعرض عليه التغيير ولا يتناوله التبديل أن نبينا محمدا صلى الله عليه وسلم رسول الله الى خلقه فيجب التصديق برسالته والاعتقاد بجميع ما ورد فى الكتاب المنزل عليه والاخذ بكل ما ثبت عنه من هدى وسنة متبعة وقد جاء فى الكتاب أنه خاتم الانبياء فوجب علينا الايمان بذلك كذلك

بقى علينا أن نشير الى وظيفة الدين الاسلامى وما دعا اليه على وجه الاجمال وكيف انتشرت دعوته بالسرعة المعروفة والسر فى كون النبى صلى الله عليه وسلم خاتم المرسلين صلوات الله عليه وعليهم أجمعين

الدين الاسلامى أو الاسلام

هو الدين الذى جاء به محمد صلى الله عليه وسلم وعقله من وعاه عنه من صحابته ومن عاصرهم وجرى العمل عليه حينا من الزمن بينهم بلا خلاف ولا اعتساف فى التأويل ولا ميل مع التشيع وإنى جهدى فى هذا الباب مقتديا بالكتاب المجيد فى التفويض لذوى البصائر أن يفقهوه وما سندى فيما أقول الا الكتاب والسنة القويمة وهدى الراشدين

جاء الدين الاسلامى بتوحيد الله تعالى فى ذاته وأفعاله وتنزيهه عن مشابهة المخلوقين فأقام الادلة على أن للكون خالقا واحدا متصفا بما دلت عليه آثار

صنعه من الصفات العلية كالعلم والقدرة والارادة وغيرها وعلى أنه لا يشبهه شيء من خلقه وأن لا نسبة بينه وبينهم الا أنه موجدهم وأنهم له واليه راجعون «قل هو الله أحد الله الصمد لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد» وما ورد من ألفاظ الوجه واليدين والاستواء ونحوها له معان عرفها العرب المخاطبون بالكتاب ولم يشتبهوا في شيء منها وان ذاته وصفاته يستحيل عليها أن تبرز في جسد أو روح أحد من العالمين وانما يختص سبحانه من شاء من عباده بما شاء من علم وسلطان على ما يريد أن يسلطه عليه من الاعمال على سنة له في ذلك سنها في علمه الازلي الذي لا يعتريه التبديل ولا يدنو منه التغيير وحظر على كل ذي عقل أن يعترف لأحد بشيء من ذلك إلا ببرهان ينتهي في مقدماته إلى حكم الحس وما جاوره من البديهيات التي لا تنقص عنه في الوضوح بل قد تعلوه كاستحالة الجمع بين النقيضين أو ارتفاعهما معا أو وجوب أن الكل أعظم من الجزء مثلا وقضى على هؤلاء كغيرهم بأنهم لا يملكون لانفسهم نفعا ولا ضرا وغاية أمرهم أنهم عباد مكرمون وأن ما يجريه على أيديهم فانما هو باذن خاص وبتيسير خاص في موضع خاص لحكمة خاصة ولا يعرف شأن الله في شيء من هذا الا ببرهان كما تقدم

دل هذا الدين بمثل قول الكتاب « والله أخرجكم من بطون أمهاتكم لا تعلمون شيأ وجعل لكم السمع والابصار والافئدة لعلكم تشكرون » والشكر عند العرب معروف أنه تصريف النعمة فيما كان الانعام بها لاجله دل بمثل هذا على أن الله وهبنا من الحواس وغرز فينا من القوى ما نصرفه في وجوهه بمحض تلك الموهبة فكل شخص كاسب لعمله بنفسه

لها أو عليها وأما ما تحير فيه مداركنا أو تقصر دونه قوانا وتشعر فيه أنفسنا بسلطان يقهرها أو ناصر يمدها فيما أدركها العجز عنه على انه فوق ما تعرف من القوى المسخرة لها وكان لا بد من الخضوع له والرجوع اليه والاستعانة به فذلك إنما يرد الى الله وحده فلا يجوز أن تخشع إلا له ولا أن تطمئن إلا إليه وكذلك جعل شأنها فيما تخافه وترجوه مما تقبل عليه في الحياة الاخرة لا يسوغ لها أن تلجأ إلى أحد غير الله في قبول أعمالها من الطيبات ولا في غفران أفاعيلها من السيئات فهو وحده مالك يوم الدين

اجتثت بذلك جذور الوثنية وما وليها مما اختلف عنها في الصورة والشكل أو العبارة واللفظ لم يختلف عنها في المعنى والحقيقة تبع هذا طهارة العقول من الاوهام الفاسدة التي لا تنفك عن تلك العقيدة الباطلة ثم تنزه النفوس عن الملكات السيئة التي كانت تلازم تلك الاوهام وتخلصت بتلك الطهارة من الاختلاف في المعبودين وعليهم وارتفع شأن الانسان وسمت قيمته بما صار اليه من الكرامة بحيث أصبح لا يخضع لاحد إلا لخالق السموات والارض وقاهر الناس أجمعين وأبيح لكل أحد بل فرض عليه أن يقول كما قال إبراهيم «إني وجهت وجهي للذي فطر السموات والارض حنيفا وما أنا من المشركين» وكما أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يقول «إن صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين لا شريك له وبذلك أمرت وأنا أول المسلمين»

تجلت بذلك للانسان نفسه حرة كريمة وأطلقت ارادته من القيود التي كانت تعقدها بارادة غيره سواء كانت إرادة بشرية ظن أنها شعبة من

الارادة الالهية أو أنها هي كارادة الرؤساء والمسيطرين أو إرادة موهومة اخترعها الخيال كما يظن فى القبور والاحجار والاشجار والكواكب ونحوها وافتكت عزيمته من أسر الوسائط والشفعاء والمتكهنة والعرفاء وزعماء السيطرة على الاسرار ومنتحلى حق الولاية على أعمال العبد فيما بينه وبين الله الزاعمين وأنهم واسطة النجاة وبأيديهم الاشقاء والاسعاد وبالجملة فقد أعتقت روحه من العبودية للمحتالين والدجالين صار الانسان بالتوحيد عبد الله خاصة حرا من العبودية لكل ماسواه فكان له من الحق ما للحر على الحر لا علىّ فى الحق ولا وضيع ولا سافل ولا رفيع ولا تفاوت بين الناس إلا بتفاوت أعمالهم ولا تفاضل إلا بتفاضلهم فى عقولهم ومعارفهم ولا يقربهم من الله إلا طهارة العقل من دنس الوهم وخلوص العمل من العوج والرياء ثم بهذا خلصت أموال الكاسبين وتمحض الحق فيها للفقراء والمساكين والمصالح العامة وكفت عنها أيدى العالة وأهل البطالة ممن كان يزعم الحق فيها بصفته ورتبته لا بعمله وخدمته

طالب الاسلام بالعمل كل قادر عليه وقرر أن لكل نفس ما كسبت وعليها ما اكتسبت « فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره » « وأن ليس للانسان إلا ما سعى » وأباح لكل أحد أن يتناول من الطيبات ماشاء أكلا وشربا ولباسا وزينة ولم يحظر عليه إلا ما كان ضارا بنفسه أو بمن يدخل فى ولايته أو ما تعدّى ضرره إلى غيره وحدّد له فى ذلك الحدود العامة بما ينطبق على مصالح البشر كافة فكفل الاستقلال

لكل شخص فى عمله واتسع المجال لتسابق الهمم فى السعى حتى لم يعد لها عقبة تتعثر بها الهمم إلا احتقاماً محترماً تصطدم به

أنحى الاسلام على التقليد وحمل عليه حملة لم يردها عنه القدر فبددت فيالقه المتغلبة على النفوس واقتلعت أصوله الراسخة فى المدارك ونسفت ما كان له من دعائم وأركان فى عقائد الامم صاح بالعقل صيحة أزعجته من سباته وهبت به من نومة طال عليه الغيب فيها كلما انفذ إليه شعاع من نور الحق خلصت إليه هينمة من سدنته هيا كل الوهم « ثم فان الليل حالك والطريق وعرة والغاية بعيدة والراحلة كليلة والازواد قليلة » علا صوت الاسلام على وساوس الطغام وجهر بأن الانسان لم يخلق ليقاد بالزمام ولكنه فطر على أن يهتدى بالعلم والاعلام أعلام الكون ودلائل الحوادث وانما المعلمون منبهون ومرشدون والى طرق البحث هادون صرح فى وصف أهل الحق بأنهم « الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه » فوصفهم بالتمييز بين ما يقال من غير فرق بين القائلين ليأخذوا بما عرفوا احسنه ويطرحوا ما لم يتبينوا صحته ونفعه ومال على الرؤساء فأنزلهم من مستوى كانوا فيه يأمرون وينهون ووضعهم تحت أنظار مرؤسيهم يخبرونهم كما يشاؤن ويمتحنون مزاعمهم حسبما يحكمون ويقضون فيها بما يعلمون ويتيقنون لا بما يظنون ويتوهمون . صرف القلوب عن التعلق بما كان عليه الآباء وما توارثه عنهم الابناء وسجل الحمق والسفاهة على الآخذين بأقوال السابقين ونبه على أن السبق فى الزمان ليس آية من آيات العرفان ولا مسميا العقول على عقول ولا الأذهان على أذهان وإنما السابق واللاحق فى التمييز والفطرة

سيان بل للاحق من علم الاحوال الماضية واستعداده للنظر فيها والانتفاع بما وصل اليه من آثارها فى الكون ما لم يكن لمن تقدمه من أسلافه وابائه وقد يكون من تلك الآثار التى ينتفع بها أهل الجيل الحاضر ظهور العواقب السيئة لاعمال من سبقهم وطغيان الشر الذى وصل اليهم بما اقترفه سلفهم «قل سيروا فى الارض فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين» وان أبواب فضل الله لم تغلق دون طالب ورحمته التى وسعت كل شئ لن تضيق عن دائب عاب أرباب الاديان فى اقتفائهم أثر آبائهم ووقوفهم عندما اختطته لهم سير أسلافهم وقولهم «بل نتبع ما وجدنا عليه آباءنا» «انا وجدنا آباءنا على أمة وانا على آثارهم مهتدون» فأطلق بهذا سلطان العقل من كل ما كان قيده وخلصه من كل تقليد كان استعبده ورده الى مملكته يقضى فيها بحكمه وحكمته مع الخضوع مع ذلك لله وحده والوقوف عند شريعته ولا حد للعمل فى منطقة حدودها ولا نهاية للنظر يمتد تحت بنودها

بهذا وما سبقه تم للانسان بمقتضى دينه أمران عظيمان طالما حرم منهما وهما استقلال الارادة واستقلال الرأى والفكر وبهما كملت له انسانيته واستعد لأن يبلغ من السعادة ما هيأه الله له بحكم الفطرة التى فطر عليها وقد قال بعض حكماء الغربيين من متأخريهم ان نشأة المدنية فى أوروبا انما قامت على هذين الاصلين فلم تنهض النفوس للعمل ولم تتحرك العقول للبحث والنظر الا بعد أن عرف العدد الكثير أنفسهم وأن لهم حقا فى تصريف اختيارهم وفى طلب الحقائق بعقولهم ولم يصل اليهم هذا النوع من العرفان الا فى الجيل السادس عشر من ميلاد المسيح وقرر ذلك

الحكيم انه شعاع سطع عليهم من آداب الاسلام ومعارف المحققين من أهله في تلك الازمان

رفع الاسلام بكتابه المنزل ما كان قد وضعه رؤساء الاديان من الحجر على عقول المتدينين في فهم الكتب السماوية استئثارا من أولئك الرؤساء بحق الفهم لانفسهم وضنا به على كل من لم يلبس لباسهم ولم يسلك مسلكهم لنيل تلك الرتب المقدسة ففرضوا على العامة أو أباحوا لهم أن يقرؤا قطعا من تلك الكتب لكن على شريطة أن لا يفهموها ولا أن يطيلوا أنظارهم الى ما ترمي اليه ثم غالوا في ذلك فحرموا انفسهم أيضا مزية الفهم الا قليلا ورموا عقولهم بالقصور عن ادراك ما جاء في الشرائع والنبوات ووقفوا كما وقفوا بالناس عند تلاوة الالفاظ تعبدا بالاصوات والحروف فذهبوا بحكمة الارسال فجاء القرآن يلبسهم عار ما فعلوا فقال «ومنهم أميون لا يعلمون الكتاب الا أماني وإن هم إلا يظنون» «مثل الذين حملوا التوراة ثم لم يحملوها كمثل الحمار يحمل أسفارا بئس مثل القوم الذين كذبوا بآيات الله والله لا يهدي القوم الظالمين» أما الاماني فقسرت بالقراآت والتلاوات أي لا يعلمون منه الا أن يتلوه واذا ظنوا أنهم على شيء مما دعا اليه فهو عن غير علم بما أودعه وبلا برهان على ما تخيلوه عقيدة وظنوه دينا واذا عن لاحدهم أن يبين شيأ من أحكامه ومقاصده لشهوة دفعته الى ذلك جاء فيما يقول بما ليس منه على بينة واعتسف في التأويل وقال هذا من عند الله «فويل للذين يكتبون الكتاب بأيديهم ثم يقولون هذا من عند الله ليشتروا به ثمنا قليلا» أما الذين قال انهم لم يحملوا التوراة

وهى بين أيديهم بعد ما حملوها فهم الذين لم يعرفوا منها الا الألفاظ ولم تسم عقولهم الى درك ما أودعته من الشرائع والاحكام فعميت عليهم بذلك طرق الاهتداء بها وطمست عن أعينهم أعلام الهداية التى نصبت بانزالها فحق عليهم ذلك المثل الذى أظهر شأنهم فيما لا يليق بنفس بشرية أن تظهر به مثل الحمار الذى يحمل الكتب ولا يستفيد من حملها الا العناء والتعب وقصم الظهر وانبهار النفس وما أشنع شأن قوم انقلبت بهم الحال فما كان سببا فى إسعادهم وهو التنزيل والشريعة أصبح سببا فى شقائهم بالجهل والغباوة وبهذا التقريع ونحوه وبالدعوة العامة الى الفهم وتمحيص الالباب للتفقه واليقين مما هو منتشر فى القرآن العزيز فرض الاسلام على كل ذى دين أن يأخذ بحظه من علم ما أودع الله فى كتبه وما قرر من شرعه وجعل الناس فى ذلك سواء بعد استيفاء الشرط باعداد ما لا بد منه للفهم وهو سهل المنال على الجمهور الاعظم من المتدينين لا تختص به طبقة من الطبقات ولا يحتكر مزيته وقت من الاوقات

جاء الاسلام والناس شيع فى الدين وان كانوا إلا قليلا فى جانب عن اليقين يتنابذون ويتلاعنون ويزعمون فى ذلك أنهم بحبل الله مستمسكون فرقة وتخالف وشغب يظنونها فى سبيل الله أقوى سبب أنكر الاسلام ذلك كله وصرح تصريحا لا يحتمل الريبة بان دين الله فى جميع الازمان وعلى ألسن جميع الانبياء واحد قال الله «ان الدين عند الله الاسلام وما اختلف الذين أوتوا الكتاب إلا من بعد ما جاءهم العلم بغيا بينهم» «ما كان ابراهيم يهوديا ولا نصرانيا ولكن كان حنيفا مسلما وما كان من المشركين»

المشركين» «شرع لكم من الدين ما وصى به نوحا والذى أوحينا اليك وما وصينا به ابراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه كبر على المشركين ما تدعوهم اليه» «قل يا أهل الكتاب تعالوا الى كلمة سواء بيننا وبينكم أن لا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيأ ولا يتخذ بعضنا بعضا أربابا من دون الله فان تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون» وكثير من ذلك يطول ايراده فى هذه الوريقات والآيات الكريمة التى تعيب على أهل الدين ما نزعوا اليه من الاختلاف والمشاقة مع ظهور الحجة واستقامة المحجة لهم فى علم ما اختلفوا فيه معروفة لكل من قرأ القرآن وتلاه حق تلاوته نص الكتاب على أن دين الله فى جميع الازمان هو إفراده بالربوبية والاستسلام له وحده بالعبودية وطاعته فيما أمر به ونهى عنه مما هو مصلحة للبشر وعماد لسعادتهم فى الدنيا والآخرة وقد ضمنه كتبه التى أنزلها على المصطفين من رسله ودعا العقول الى فهمه منه والعزائم الى العمل به وان هذا المعنى من الدين هو الاصل الذى يرجع اليه عند هبوب ريح التخالف وهو الميزان الذى توزن به الاقوال عند التناصف وان اللجاج والمراء فى الجدل فراق مع الدين وبعد عن سنته ومتى روعيت حكمته ولوحظ جانب العناية الالهية فى الانعام على البشر به ذهب الخلاف وتراجعت القلوب الى سدادها وسار الكافة فيما شرع لهم اخوانا بالحق مستمسكين وعلى نصرته متعاونين

أما صور العبادات وضروب الاحتفالات مما اختلفت فيه الاديان الصحيحة سابقها مع لاحقها واختلاف الاحكام متقدمها مع متأخرها فمصدره رحمة الله ورأفته فى ايتاء كل أمة وكل زمان ما علم فيه الخير للامة

والملاءمة للزمان وكما جرت سنته وهو رب العالمين بالتدريج في تربية الاشخاص من خارج من بطن أمه لا يعلم شيأ الى راشد في عقله كامل في نشأته يخرق الحجب بفكره ويواصل أسرار الكون بنظره كذلك لم تختلف سنته ولم يضطرب هديه في تربية الامم فلم يكن من شأن الانسان في جملته ونوعه أن يكون في مرتبة واحدة من العلم وقبول الخطاب من يوم خلقه الله الى يوم يبلغ به من الكمال منتهاه بل سبق القضاء بان يكون شأن جملته في النمو قائما على ما قررته الفطرة الالهية في شأن أفراده وهذا من البديهيات التي لا يصح الاختلاف فيها وان اختلف أهل النظر في بيان ما تفرع منه في علوم وضعت للبحث في الاجتماع البشري خاصة فلا نطيل الكلام فيه هنا

جاءت أديان والناس من فهم مصالحهم العامة بل والخاصة في طور أشبه بطور الطفولية الناشئ الحديث العهد بالوجود لا يألف منه الا ما وقع تحت حسه ويصعب عليه أن يضع الميزان بين يومه وأمسه وأن يتناول بذهنه من المعاني ما لا يقرب من لمسه ولم ينفث في روعه من الوجدان الباطن ما يعطفه على غيره من عشيره أو ابن جنسه فهو من الحرص على ما يقيم بناء شخصه في هم شاغل عما يلقى اليه فيما يتصل بغيره اللهم إلا يدا تصل الى فمه بطعام أو تسنده في قعود أو قيام فلم يكن من حكمة تلك الاديان أن تخاطب الناس بما يلطف في الوجدان أو يرقى اليه بسلم البرهان بل كان من عظيم الرحمة أن تسير بالأقوام وهم عيال الله سير الوالد بولده في سذاجة السن لا يأتيه إلا من قبل ما يحسه بسمعه أو ببصره فأخذتهم بالاوامر الصادعة والزواجر الرادعة وطالبتهم بالطاعه

وحملتهم فيها على مبلغ الاستطاعة كلفتهم بعقول المعنى جلى الغاية وان
لم يفهموا معناه ولم تصل مداركهم الى مرماه وجاءتهم من الآيات بما
تطرف له عيونهم وتنفعل به مشاعرهم وفرضت عليهم من العبادات
ما يليق بحالهم هذه

ثم مضت على ذلك أزمان علت فيها الاقوام وسقطت وارتفعت وانحطت
وجربت وكسبت وتخالفت واتفقت وذاقت من الايام آلاما وتقلبت
فى السعادة والشقاء أياما وأياما ووجدت الانفس بنفث الحوادث ولقن
الكوارث شعورا أدق من الحس وأدخل فى الوجدان لا يرتفع فى الجملة
عما تشعر به قلوب النساء أو تذهب معه نزعات الغلمان فجاء دين يخاطب
العواطف ويناجى المراحم ويستعطف الاهواء ويحادث خطرات
القلوب فشرع للناس من شرائع الزهادة ما يصرفهم عن الدنيا بجملتها
ويوجه وجوههم نحو الملكوت الاعلى ويقتضى من صاحب الحق أن
لا يطالب به ولو بحق ويغلق أبواب السماء فى وجوه الاغنياء وما ينحو
نحو ذلك مما هو معروف وسن للناس سننا فى عبادة الله تتفق مع ما كانوا
عليه وما دعاهم اليه فلاقى من تعلق النفوس بدعوته ما أصلح من فاسدها
وداوى من أمراضها ثم لم يمض عليه بضعة أجيال حتى ضعفت العزائم
البشرية عن احتماله وضاقت الذرع عن الوقوف عند حدوده والاخذ
بأقواله ووقر فى الظنون أن اتباع وصاياه ضرب من المحال فذهب القائمون
عليه أنفسهم لمنافسة الملوك فى السلطان ومزاحمة أهل الترف فى جمع
الاموال وانحرف الجمهور الاعظم منهم عن جادته بالتأويل وأضافوا
عليه ما شاء الهوى من الاباطيل هذا كان شأنهم فى السجايا والاعمال

نسوا طهارته وباعوا نزاهته أمام العقائد فتفرقوا شيعا وأحدثوا بدعا ولم يستمسكوا من أصوله الا بما ظنوه من أشد أركانها وتوهموه من أقوى دعائمها وهو حرمان العقول من النظر فيه بل وفي غيره من دقائق الاكوان والخطر على الافكار أن تنفذ الى شئ من سرائر الخلقة فصرحوا بأن لاوفاق بين الدين والعقل وأن الدين من أشد أعداء العلم ولم يكف الذاهب الى ذلك أن يأخذ به نفسه بل جد فى حمل الناس على مذهبه بكل ما ملك من حول وقوة وأفضى الغلو فى ذلك بالانفس الى نزعة كانت أشأم النزعات على العالم الانسانى وهى نزعة الحرب بين أهل الدين للالزام ببعض قضايا الدين فتقوض الاصل وتخرمت العلائق بين الاهل وحلت القطيعة محل التراحم والتخاصم مكان التعاون والحرب محل السلام وكان الناس على ذلك الى أن جاء الاسلام

كان سن الاجتماع البشرى قد بلغ بالانسان أشده وأعدته الحوادث الماضية إلى رشده فجاء الاسلام يخاطب العقل ويستصرخ الفهم واللب و يشركه مع العواطف والاحساس فى ارشاد الانسان إلى سعادته الدنيوية والاخروية وبين للناس ما اختلفوا فيه وكشف لهم عن وجه ما اختصموا عليه وبرهن على أن دين الله فى جميع الاجيال واحد ومشيئته فى إصلاح شؤنهم وتطهير قلوبهم واحدة وأن رسم العبادة على الاشباح انما هو لتجديد الذكرى فى الارواح وأن الله لا ينظر الى الصور ولكن ينظر الى القلوب وطالب المكلف برعاية جسده كما طالبه باصلاح سره ففرض نظافة الظاهر كما أوجب طهارة الباطن وعد كلا الامرين طهرا مطلوبا وجعل روح العبادة الاخلاص وان ما فرض من الاعمال انما هو لما

أوجب من التطبع بصالح الملكات « ان الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر » « ان الانسان خلق هلوعا اذا مسه الشر جزوعا واذا مسه الخير منوعا الا المصلين » ورفع الغنى الشاكر الى مرتبة الفقير الصابر بل ربما فضله عليه وعامل الانسان فى مواعظه معاملة الناصح الهادى للرجل الرشيد فدعاه الى استعمال جميع قواه الظاهرة والباطنة وصرح بما لا يقبل التأويل أن فى ذلك رضا الله وشكر نعمته وأن الدنيا مزرعة الآخرة ولا وصول الى خير العقبى الا بالسعى فى صلاح الدنيا

التفت الى أهل العناد فقال لهم قل هاتوا برهانكم ان كنتم صادقين وعنف النازعين الى الخلاف والشقاق على ما زعزعوا من أصول اليقين ونص على أن التفرق بغى وخروج عن سبيل الحق المبين ولم يقف فى ذلك عند حد الموعظة بالكلام والنصيحة بالبيان بل شرع شريعة الوفاق وقررها فى العمل فأباح للمسلم أن يتزوج من أهل الكتاب وسوغ مؤاكلتهم وأوصى أن تكون مجادلتهم بالتى هى أحسن ومن المعلوم أن المحاسنة هى رسول المحبة وعقد الالفة والمصاهرة انما تكون بعد التحاب بين أهل الزوجين والارتباط بينهما بروابط الائتلاف ثم أخذ العهد على المسلمين أن يدافعوا عمن يدخل فى ذمتهم من غيرهم كما يدافعون عن أنفسهم ونص على أن لهم ما لنا وعليهم ما علينا ولم يفرض عليهم جزاء ذلك الا زهيدا يقدمونه من مالهم ونهى بعد ذلك عن كل اكراه فى الدين وطيب قلوب المؤمنين فى قوله يا أيها الذين آمنوا عليكم أنفسكم لا يضركم من ضل اذا اهتديتم فعليهم الدعوة الى الخير بالتى هى أحسن وليس لهم ولا عليهم أن يستعملوا أى ضرب من ضروب القوة فى الحمل على الاسلام

فان نوره جدير أن يخترق القلوب وليست الآية فى الامر بالمعروف بين المسلمين فانه لا اهتداء الا بعد القيام به ولو أريد ذلك لكان التعبير «على كل واحد منكم نفسه» لا «عليكم أنفسكم» كما هو ظاهر لكل عربى

كل ذلك ليرشد الناس الى أن الله لم يشرع لهم الدين ليتفرقوا فيه ولكن ليهديهم الى الخير فى جميع نواحيه

رفع الاسلام كل امتياز بين الاجناس البشرية وقرر لكل فطرة شرف النسبة الى الله فى الخلقة وشرف اندراجها فى النوع الانسانى بالجنس والفصل والخاصة وشرف استعدادها بذلك لبلوغ أعلى درجات الكمال الذى أعده الله لنوعها على خلاف مازعمه المنتحلون من الاختصاص بمزايا حرموا منها غيرهم وتسجيل الخسة على أصناف زعموا أنها لن تبلغ من الشأن أن تلحق غبارهم فأماتوا بذلك الارواح فى معظم الامم وصيروا أكثر الشعوب هياكل وأشباحا

هذه عبادات الاسلام على ما فى الكتاب وصحيح السنة تتفق على ما يليق بجلال الله وسموّ وجوده عن الأشباه وتلتئم مع المعروف عند العقول السليمة فالصلاة ركوع وسجود وحركة وسكون ودعاء وتضرع وتسبيح وتعظيم وكلها تصدر عن ذلك الشعور بالسلطان الالهى الذى يغمر القوة البشرية ويستغرق الحول فتخشع له القلوب وتستخذى له النفوس وليس فيها شئ يعلو على متناول العقل الا نحو تحديد عدد الركعات أو رمى الجمرات على أنه مما يسهل التسليم فيه لحكمة العليم الخبير وليس فيه من مظاهر العبث واستحالة المعنى ما يخل بالاصول التى وضعها الله للعقل فى الفهم والتفكير أما الصوم فحرمان يعظم به أمر الله فى النفس وتعرف

به مقادير النعم عند فقدها ومكانة الاحسان الالهى فى التفضل بها « كتب عليكم الصيام كما كتب على الذين من قبلكم لعلكم تتقون »

أما أعمال الحج فتذكير للانسان بأوليات حاجاته وتعهد له بتمثيل المساواة بين أفراده ولو فى العمر مرة يرتفع فيها الامتياز بين الغنى والفقير والصعلوك والامير ويظهر الجميع فى معرض واحد عراة الابدان متجردين عن آثار الصنعة وحدت بينهم العبودية لله رب العالمين كل ذلك مع استبقائهم فى الطواف والسعى والمواقف ولمس الحجر ذكرى ابراهيم عليه السلام وهو أبو الدين وهو الذى سماهم المسلمين واستقرار يقينهم على أن لا شىء من تلك البقايا الشريفة يضر أو ينفع وشعار هذا الاذعان الكريم فى كل عمل « الله أكبر » أين هذا كله مما تجد فى عبادات أقوام آخرين يضل فيها العقل ويتعذر معها خلوص السر للتنزيه والتوحيد

كشف الاسلام عن العقل غمة من الوهم فيما يعرض من حوادث الكون الكبير « العالم » والكون الصغير « الانسان » فقرر أن آيات الله الكبرى فى صنع العالم انما يجرى أمرها على السنن الالهية التى قدرها الله فى علمه الازلى لا يغيرها شىء من الطوارئ الجزئية غير أنه لا يجوز أن يغفل شأن الله فيها بل ينبغى أن يحيى ذكره عند رؤيتها فقد جاء على لسان النبى صلى الله عليه وسلم « ان الشمس والقمر آيتان من آيات الله لا ينخسفان لموت أحد ولا لحياته فاذا رأيتم ذلك فاذكروا الله » وفيه تصريح بأن جميع آيات الكون تجرى على نظام واحد لا يقضى فيه الا العناية الازلية على السنن التى أقامته عليها ثم أماط اللثام عن حال الانسان فى النعم التى يتمتع بها الاشخاص أو الامم والمصائب التى يرزؤن بها ففصل بين

الامرين فصلا لامجال معه للخلط بينهما فأما النعم التي يمتع الله بها بعض الاشخاص في هذه الحياة والرزايا التي يرزأ بها في نفسه فكثير منها كالثروة والجاه والقوة والبنين أو الفقر والضعة والضعف والفقد قد لا يكون كاسبها أو جالبها ما عليه الشخص في سيرته من استقامة وعوج أو طاعة وعصيان وكثيرا ما أمهل الله بعض الطغاة البغاة أو الفجرة الفسقة وترك لهم متاع الحياة الدنيا إنظارا لهم حتى يتلقاهم ما أعد لهم من العذاب المقيم في الحياة الاخرى وكثيرا ما امتحن الله الصالحين من عباده وأثنى عليهم في الاستسلام لحكمه وهم الذين اذا أصابتهم مصيبة عبروا عن إخلاصهم في التسليم بقولهم «إنا لله وإنا اليه راجعون» فلا غضب زيد ولا رضا عمرو ولا إخلاص سريرة ولا فساد عمل مما يكون له دخل في هذه الرزايا ولا في تلك النعم الخاصة اللهم الا فيما ارتباطه بالعمل ارتباط المسبب بالسبب على جاري العادة كارتباط الفقر بالاسراف والذل بالجبن وضياع السلطان بالظلم وكارتباط الثروة بحسن التدبير في الاغلب والمكانة عند الناس بالسعي في مصالحهم على الاكثر وما يشبه ذلك مما هو مبين في علم آخر

أما شأن الامم فليس على ذلك فان الروح الذي أودعه الله جميع شرائعه الالهية من تصحيح الفكر وتسديد النظر وتأديب الاهواء وتحديد مطامح الشهوات والدخول الى كل أمر من بابه وطلب كل رغيبة من أسبابها وحفظ الامانة واستشعار الاخوة والتعاون على البر والتناصح في الخير والشر وغير ذلك من أصول الفضائل ذلك الروح هو مصدر حياة الامم ومشرق سعادتها في هذه الدنيا قبل الآخرة «من يرد ثواب الدنيا نؤته

منها

منها» ولن يسلب الله عنها نعمته مادام هذا الروح فيها يزيد الله النعم بقوته وينقصها بضعفه حتى اذا فارقها ذهبت السعادة على أثره وتبعته الراحة الى مقره واستبدل الله عزة القوم بالذل وكثرهم بالقل ونعيمهم بالشقاء وراحتهم بالعناء وسلط عليهم الظالمين أو العادلين فأخذهم بهم وهم فى غفلة ساهون «واذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها فحق عليها القول فدمرناها تدميرا» أمرناهم بالحق ففسقوا عنه الى الباطل ثم لا ينفعهم الانين ولا يجديهم البكاء ولا يفيدهم ما بقى من صور الاعمال ولا يستجاب منهم الدعاء ولا كاشف لما نزل بهم الا أن يلجؤا الى ذلك الروح الاكرم فيستنزلوه من سماء الرحمة برسل الفكر والذكر والصبر والشكر «ان الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم» «سنة الله فى الذين خلوا من قبل ولن تجد لسنة الله تبديلا» وما أحلى ما قاله العباس بن عبد المطلب فى استسقائه «اللهم إنه لم ينزل بلاء الا بذنب ولم يرفع إلا بتوبة» على هذه السنن جرى سلف الامة فبينما كان المسلم يرفع روحه بهذه العقائد السامية ويأخذ نفسه بما يتبعها من الاعمال الجليلة كان غيره يظن أنه يزلزل الارض بدعائه ويشق الفلك ببكائه وهو ولع باهوائه ماض فى غلوائه وما كان يغنى عنه ظنه من الحق شيئا

حث القرآن على [illegible] بالامر بالمعروف والنهى عن المنكر فقال «فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا فى الدين ولينذروا قومهم إذا رجعوا اليهم لعلهم يحذرون» ثم فرض ذلك فى قوله «ولتكن منكم أمة يدعون الى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون ولا تكونوا كالذين تفرقوا واختلفوا

من بعد ما جاءهم البينات وأولئك لهم عذاب عظيم يوم تبيض وجوه وتسود وجوه فأما الذين اسودت وجوههم أكفرتم بعد إيمانكم فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون وأما الذين ابيضت وجوههم ففي رحمة الله هم فيها خالدون تلك آيات الله نتلوها عليك بالحق وما الله يريد ظلما للعالمين ولله ما في السموات وما في الارض والى الله ترجع الامور» ثم بعد هذا الوعيد الذي يزعج المفرطين ويحق به كلمة العذاب على المختلفين والمقصرين أبرز حال الآمرين بالمعروف الناهين عن المنكر في أجل مظهر يمكن أن تظهر فيه حال أمة فقال «كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله» فقدم ذكر الامر بالمعروف والنهي عن المنكر على الايمان في هذه الآية مع أن الايمان هو الاصل الذي تقوم عليه أعمال البر والدوحة التي تتفرع عنها أفنان الخير تشريفا لتلك الفريضة واعلاء لمنزلتها بين الفرائض بل تنبيها على أنها حفاظ الايمان وملاك أمره ثم شدد بالانكار على قوم أغفلوها وأهل دين أهملوها فقال «لعن الذين كفروا من بني اسرائيل على لسان داود وعيسى بن مريم ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه لبئس ما كانوا يفعلون» فقذف عليهم اللعنة وهي أشد ما عنون الله به على مقته وغضبه

فرض الاسلام للفقراء في أموال الاغنياء حقا معلوما يفيض به الآخرون على الاولين سدا لحاجة المعدم وتفريجا لكربة الغارم وتحريرا لرقاب المستعبدين وتيسيرا لابناء السبيل ولم يحث على شيء حثه على الانفاق من الاموال في سبيل الخير وكثيرا ما جعله عنوان الايمان ودليل

الاهتـداء الى الصراط المستقيم فاستـل بذلك ضغائن أهـل الفاقة ومحص صدورهم من الأحقاد على من فضلهم الله عليهم فى الرزق وأشعر قلوب أولئك محبة هؤلاء وساق الرحمة فى نفوس هؤلاء على أولئك البائسين فاستقرت بذلك الطمأنينة فى نفوس الناس أجمعين وأى دواء لأمراض الاجتماع أنجع من هذا «ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم»

أغلق الاسلام بابى الشر وسد ينبوعى فساد العقل والمال بتحريمـه الخمر والمقامرة والربا تحريما باتا لا هوادة فيه

لم يدع الاسلام بعد ما قررنا أصـلا من أصول الفضائل الا أتى عليه ولا أما من أمهات الصالحات الا أحياها ولا قاعدة من قواعد النظام الا قررها فاستجمع للانسان عنـد بلوغ رشده كما ذكرنا حرية الفكر واستقلال العقل فى النظر وما به صلاح السجايا واستقامة الطبـع وما فيه إنهاض العزائم الى العمل وسوقها فى سـبل السعى ومن يتـلو القرآن حق تلاوته يجـد فيه من ذلك كنزا لا ينفد وذخـيرة لا تفنى هل بعد الرشد وصاية وبعد كمال العقل ولاية كلا قد تبين الرشد من الغى ولم يبق الا اتباع الهدى والانتفاع بما ساقته يدى الرحمة لبلوغ الغاية من السعادتين لهذا ختمت النبوات بنبوة محمد صلى الله عليه وسلم وانتهت الرسالات برسالته كما صرح بذلك الكتاب وأيدته السنة الصحيحة وبرهنت علیـه خيبة مدعيها من بعده واطمئنان العالم بما وصل اليه من العـلم الى أن لا سبيل بعد لقبول دعوة يزعم القائم بها أنه يحدث عن الله بشرع أو يصـدع عن

وحيه بأمر هكذا يصدق نبأ الغيب «ما كان محمد أبا أحد من رجالكم ولكن رسول الله وخاتم النبيين وكان الله بكل شيء عليما»

انتشار الاسلام بسرعة لم يعهد لها نظير في التاريخ

كانت حاجة الامم الى الاصلاح عامة فجعل الله رسالة خاتم النبيين عامة كذلك لكن يندهش عقل الناظر في أحوال البشر عندما يرى ان هذا الدين يجمع اليه الامة العربية من أدناها الى أقصاها في أقل من ثلاثين سنة ثم يتناول من بقية الامم ما بين المحيط الغربي وجدار الصين في أقل من قرن واحد وهو أمر لم يعهد في تاريخ الاديان ولذلك ضل الكثير في بيان السبب واهتدى اليه المنصفون فبطل العجب

ابتدأ هذا الدين بالدعوة كغيره من الاديان ولقي من أعداء أنفسهم أشد ما يلقى حق من باطل أوذي الداعي صلى الله عليه وسلم بضروب الايذاء وأقيم في وجهه ما كان يصعب تذليله من العقاب لولا عناية الله وعذب المستجيبون له وحرموا الرزق وطردوا من الدار وسفكت منهم دماء غزيرة غير ان تلك الدماء كانت عيون العزائم تتفجر من صخور الصبر يثبت الله عشهدها المستيقنين ويقذف بها الرعب في أنفس المرتابين فكانت تسيل لمنظرها نفوس أهل الريب وهي ذوب ما فسد من طباعهم تجرى من مناحرهم جرى الدم الفاسد من المفصود على أيدى الاطباء الحاذقين «ليميز الله الخبيث من الطيب ويجعل الخبيث بعضه على بعض فيركمه جميعا فيجعله في جهنم أولئك هم الخاسرون» ألبت الملل المختلفة من

كان

كان يسكن جزيرة العرب وما جاورها على الاسلام ليصدوا نبيّه ويخنقوا دعوته فما زال يدافع عن نفسه دفاع الضعيف للاقوياء والفقير للاغنياء ولا ناصر له الا أنه الحق بين الاباطيل والرشد فى ظلمات الاضاليل حتى ظفر بالعزة وتعزز بالمنعة وقد وطئ أرض الجزيرة أقوام من أديان أخر كانت تدعو اليها وكانت لهم ملوك وعزة وسلطان وحملوا الناس على عقائدهم بأنواع من المكاره ومع ذلك لم يبلغ بهم السعي نجاحا ولا أنالهم القهر فلاحا

ضم الاسلام سكان القفار العربية الى وحدة لم يعرفها تاريخهم ولم يعهد لها نظير فى ماضيهم وكان النبي صلى الله عليه وسلم قد أبلغ رسالته بأمر ربه الى من جاور البلاد العربية من ملوك الفرس والرومان فهزؤا وامتنعوا وناصبوه وقومه الشر وأخافوا السابلة وضيقوا على المتاجر فبعث اليهم البعوث فى حياته وجرى على سنته الائمة من صحابته طلبا للامن وابلاغا للدعوة فاندفعوا فى ضعفهم وفقرهم يحملون الحق على أيديهم وانهالوا به على تلك الامم فى قوتها ومنعتها وكثرة عددها واستكمال أهبها وعددها فظفروا منها بما هو معلوم وكانوا متى وضعت الحرب أوزارها واستقر سلطان الفاتح عطفوا على المغلوبين بالرفق واللين وأباحوا لهم البقاء فى أديانهم وإقامة شعائرها آمنين مطمئنين ونشروا حمايتهم عليهم يمنعونهم مما يمنعون منه أهليهم وأموالهم وفرضوا عليهم كفاء ذلك جزءاً قليلا من مكاسبهم على شرائط معينة كانت الملوك من غير المسلمين اذا فتحوا مملكة أتبعوا جيشها الظافر بجيش من الدعاة الى دينها يلحون على الناس بسرّهم ويغشون مجالسهم ليحملوهم على دين الظافر وبرهانهم

الغلبة وجبتهم القوة ولم يقع ذلك لفاتح من المسلمين ولم يعهد فى تاريخ فتوح الاسلام أن كان له دعاة معروفون لهم وظيفة ممتازة يأخذون على أنفسهم العمل فى نشره ويقفون مسعاهم على بث عقائده بين غير المسلمين بل كان المسلمون يكتفون بمخالطة من عداهم ومحاسنتهم فى المعاملة وشهد العالم بأسره أن الاسلام كان يعد مجاملة المغلوبين فضلا وإحسانا عندما كان يعدها الاروبيون ضعة وضعفا رفع الاسلام ما ثقل من الاتاوات ورد الاموال المسلوبة الى أربابها وانتزع الحقوق من مغتصبيها ووضع المساواة فى الحق عند التقاضى بين المسلم وغير المسلم بلغ أمر المسلمين فيما بعد أن لا يقبل اسلام من داخل فيه الا بين يدى قاض شرعى باقرار من المسلم الجديد أنه أسلم بلا اكراه ولا رغبة فى دنيا وصل الامر فى عهد بعض الخلفاء الامويين أن كره عمالهم دخول الناس فى دين الاسلام لما رأوا انه ينقص من مبالغ الجزية وكان فى حال أولئك العمال صد عن سبيل الدين لا محالة عرف خلفاء المسلمين وملوكهم فى كل زمن ما لبعض أهل الكتاب بل وغيرهم من المهارة فى كثير من الاعمال فاستخدموهم وصعدوا بهم الى أعلى المناصب حتى كان منهم من تولى قيادة الجيش فى اسبانيا اشتهرت حرية الاديان فى بلاد الاسلام حتى هجر اليهود أوربا فرارا منها بدينهم الى بلاد الاندلس وغيرها

هذا ما كان من أمر المسلمين فى معاملتهم لمن أظلوهم بسيوفهم لم يفعلوا شيأ سوى أنهم حملوا الى أولئك الاقوام كتاب الله وشريعته وألقوا بذلك بين أيديهم وتركوا الخيار لهم فى القبول وعدمه ولم يقوموا بينهم بدعوة ولم يستعملوا الاكراه عليه شيأ من القوة وما كان من الجزية

لم

لم يكن مما يثقل أداؤه على من ضربت عليه فما الذى أقبل بأهل الاديان المختلفة على الاسلام وأقنعهم انه الحق دون ما كان لديهم حتى دخلوا فيه أفواجا وبذلوا فى خدمته مالم يبذله العرب أنفسهم

ظهور الاسلام على ما كان فى جزيرة العرب من ضروب العبادات الوثنية وتغلبه على ما كان فيها من رذائل الاخلاق وقبائح الاعمال وسيره بسكانها على الجادة القويمة حقق لقراء الكتب الالهية السابقة أن ذلك هو وعد الله لنبيه ابراهيم واسمعيل وان هذا الدين هو ما كانت تبشر به الانبياء أقوامها من بعدهما فلم يجد أهل النصفة منهم سبيلا الى البقاء على العناد فى مجاحدته فتلقوه شاكرين وتركوا ما كان لهم بين قومهم صابرين أوقع ذلك من الريب فى قلوب مقلديهم ما حركهم الى النظر فيه فوجدوا لطفا ورحمة وخيرا ونعمة لا عقيدة ينفر منها العقل وهو رائد الايمان الصادق ولا عمل تضعف عن احتماله الطبيعة البشرية وهى القاصية فى قبول المصالح والمرافق رأوا أن الاسلام يرفع النفوس بشعور من اللاهوت يكاد يعلو بها عن العالم السفلى ويلحقها بالملكوت الاعلى ويدعوها الى احياء ذلك الشعور بخمس صلوات فى اليوم وهو مع ذلك لا يمنع من التمتع بالطيبات ولا يفرض من الرياضات وضروب الزهادة ما يشق على المقصود بشريته بجشمه ويعد بذلك الله ونيل ثوابه حتى فى توفية البدن حقه متى حسنت النية وخلصت السريرة فاذا نزت شهوة أو غلب هوى كان الغفران الالهى ينتظره متى حسنت التوبة وكملت الاوبة تبدت لهم سذاجة الدين عند ما قرؤا القرآن ونظروا فى سيرة الطاهرين من حامليه اليهم وظهر لهم الفرق بين ما لا سبيل الى فهمه وما

تكفى جولة تطرفى الوصول الى علمه فترامواالیه خفافا من ثقل ما كانوا
عليه كانت الامم تطلب عقلا فى دين فوافاها وتتطلع الى عدل فى ايمان
فأتاها فما الذى يحجم بها عن المسارعة الى طلبتها والمبادرة الى رغيبتها.
كانت الشعوب تئن من ضروب الامتياز التى رفعت بعض الطبقات على
بعض بغير حق. وكان من حكمها أن لا يقام وزن لشؤن الادنين متى عرضت
دونها شهوات الاعلين فجاء دين يحدد الحقوق ويسوى بين جميع الطبقات
فى احترام النفس والدين والعرض والمال ويسوغ لامرأة فقيرة غير
مسلمة أن تأبى بيع بيت صغير بأية قيمة لامير عظيم مطلق السلطان فى قطر
كبير وما كان يريده لنفسه ولكن ليوسع به مسجدا فلما عقد العزيمة على
أخذه مع دفع أضعاف قيمته رفعت الشكوى الى الخليفة فورد أمره برد
بيتها اليها مع لوم الامير على ما كان منه عدل يسمح ليهودى أن يخاصم
مثل على بن أبى طالب أمام القاضى وهو من نعلم من هو ويستوقفه معه
للتقاضى الى أن قضى الحق بينهما هذا وما سبق بيانه مما جاء به الاسلام
هو الذى حببه الى من كانوا أعداءه ورد اليه أهراءهم حتى صاروا
أنصاره وأولياءه

غلب على المسلمين فى كل زمن روح الاسلام فكان من خلقهم العطف على
من جاورهم من غيرهم ولم تستشعر قلوبهم عداوة لمن خالفهم الا بعد أن
يحرجهم الجار فهم كانوا يتعلمونها ممن سواهم ثم لا يكون الا طائفا يلم ثم
يرتحل فاذا انقطعت أسباب الشغب تراجعت القلوب الى سابق ما ألفته
من اللين والمياسرة ومع ذلك بل وغفلة المسلمين عن الاسلام وخذلانهم له
وسعى الكثير منهم فى هدمه بعلم وبغير علم لم يقف الاسلام فى انتشاره عند

حد خصوصا فى الصين وفى أفريقيا ولم يخل زمن من رؤية جموع كثيرة
من ملل مختلفة تنزع الى الاخذ بعقائده على بصيرة فيما تنزع اليه لا سيف
وراءها ولا داعى أمامها وانما هو مجرد الاطلاع على ما أودعه مع قليل
من حركة الفكر فى العلم بما شرعه ومن هذا تعلم أن سرعة انتشار الدين
الاسلامى واقبال الناس على الاعتقاد به من كل ملة انما كان لسهولة
تعقله ويسر أحكامه وعدالة شريعته وبالجملة لان فطر البشر تطلب دينا
وترتاد منه ما هو أمس بمصالحها وأقرب الى قلوبها ومشاعرها وأدعى الى
الطمأنينة فى الدنيا والآخرة ودين هذا شأنه يجد الى القلوب منفذا والى
العقول مخلصا بدون حاجة الى دعاة ينفقون الاموال الكثيرة والاوقات
الطويلة ويستكثرون من الوسائل ونصب الحبائل لاسقاط النفوس
فيه هذا كان حال الاسلام فى سذاجته الاولى وطهارته التى أنشأه الله
عليها ولا يزال على جانب عظيم منها فى بعض أطراف الارض الى اليوم
قال من لم يفهم ما قدمناه أو لم يرد أن يفهمه ان الاسلام لم يطف على قلوب
العالم بهذه السرعة الا بالسيف فقد فتح المسلمون ديار غيرهم والقرآن
باحدى اليدين والسيف بالاخرى يعرضون القرآن على المغلوب فان لم
يقبله فصل السيف بينه وبين حياته سبحان الله ان هذا الا بهتان عظيم ما قدمناه
من معاملة المسلمين مع من دخلوا تحت سلطانهم هو ما تواترت به الاخبار
تواترا صحيحا لا يقبل الريبة فى جملته وان وقع اختلاف فى تفصيله
وانما شهر المسلمون سيوفهم دفاعا عن أنفسهم وكف العدوان عنهم ثم
كان الافتتاح بعد ذلك من ضرورة الملك ولم يكن من المسلمين مع غيرهم الا

أنهم جاوروهم وأجاروهم فكان الجوار طريق العلم بالاسلام وكانت الحاجة لصلاح العقل والعمل داعية الانتقال اليه

لو كان السيف ينشر دينا فقد عمل فى الرقاب للاكراه على الدين والالزام به مهددا كل أمة لم تقبله بالابادة والمحو من سطح البسيطة مع كثرة الجيوش ووفرة العدد وبلوغ القوة أسمى درجة كانت تمكن لها وابتدأ ذلك العمل قبل ظهور الاسلام بثلاثة قرون كاملة واستمر فى شدته بعد مجيء الاسلام سبعة أجيال أو يزيد فتلك عشرة قرون كاملة لم يبلغ فيها السيف من كسب عقائد البشر مبلغ الاسلام فى أقل من قرن هذا ولم يكن السيف وحده بل كان الحسام لا يتقدم خطوة الا والدعاة من خلفه يقولون ما يشاؤن تحت حمايته مع غيرة تفيض من الافئدة وفصاحة تتدفق عن الالسنة وأموال تخلب ألباب المستضعفين ان فى ذلك لآيات للمستيقنين

جلت حكمة الله فى أمر هذا الدين سلسبيل حياة نبع فى القفار العربية أبعد بلاد الله عن المدنية فاض حتى شملها فجمع شملها فأحياها حياة شعبية ملية علا مدّه حتى استغرق ممالك كانت تفاخر أهل السماء فى رفعتها وتعلو أهل الارض بمدنيتها زلزل هديره على لينه ما كان استحجر من الارواح فانشقت عن مكنون سر الحياة فيها قالوا كان لا يخلو من غلب « بالتحريك » قلنا تلك سنة الله فى الخلق لا تزال المصارعة بين الحق والباطل والرشد والغى قائمة فى هذا العالم الى أن يقضى الله قضاءه فيه اذا ساق الله ربيعا الى أرض جدبة ليحيى ميتها

ويتقع

ويقمع غلتها ويبني الخصب فيها أفينقص من قدره أن أتى في طريقه على عقبة فعلاها أو بيت رفيع العماد فهوى به

بسطع الاسلام على الديار التي بلغها أهله فلم يكن بين أهل تلك الديار وبينه الا أن يسمعوا كلام الله ويفقهوه اشتغل المسلمون بعضهم ببعض زمنا وانحرفوا عن طريق الدين أزمانا فوقف وقفة القائد خذله الانصار وكاد يتزحزح الى ماوراء لكن الله بالغ أمره فانحدرت الى ديار المسلمين أمم من التتار يقودها جنكيزخان وفعلوا بالمسلمين الافاعيل وكانوا وثنيين جاؤا لمحض الغلبة والسلب والنهب ولم يلبث أعقابهم أن اتخذوا الاسلام دينا وحملوه الى أقوامهم فعمهم منه ما عم غيرهم جاؤا لشقوتهم فعاجوا بسعادتهم

حمل الغرب على الشرق حملة واحدة لم يبق ملك من ملوكه ولا شعب من شعوبه الا اشترك فيها واستمرت المجالدات بين الغربيين والشرقيين أكثر من مائتي سنة جمع فيها الغربيين من الغيرة والحمية للدين ما لم يسبق لهم من قبل وجيشوا من الجند وأعدوا من القوة ما بلغته طاقتهم وزحفوا على ديار المسلمين وكانت فيهم بقية من روح الدين فغلب الغربيون على كثير من البلاد الاسلامية وانتهت تلك الحروب الجارفة باجلائهم عنه جاؤا وتمادى بهم فكر رؤساء الدين في غرب تارة شعوبهم ليبيدوا ما يشاؤن من سكان الشرق أو يستولى سلطان تلك الشعوب على ما يعتقدون لانفسهم الحق في الاستيلاء عليه من البلاد الاسلامية جاء من الملوك والامراء وذوى الثروة والاعلياء جم غفير وجاء ممن دونهم من الطبقات ما قدروه بالملايين استقر المقام بكثير من

هؤلاء فى أرض المسلمين وكانت فترات تنطفئ فيها نار الغضب وتثوب العقول الى سكينتها تنظر فى أحوال المجاورين وتلتقط من أفكار المخالطين وتنفعل بما ترى وما تسمع فتبينت أن المبالغات التى أطاشت الاحلام وجسمت الآلام لم تصب مستقر الحقيقة ثم وجدت حرية فى دين وعلما وشرعا وصنعة مع كمال فى يقين وتعلمت أن حرية الفكر وسعة العلم من وسائل الايمان لا من العوادى عليه ثم جمعت من الآداب ما شاء الله وانطلقت الى بلادها قريرة العين بما غنمته من جلادها هذا الى ما كسبه السفار من أطراف الممالك الى بلاد الاندلس بمخالطة حكمائها وأدبائها ثم عادوا بها الى شعوبهم ليذيقوهم حلاوة ما كسبوا وأخذت الافكار من ذلك العهد تتراسل والرغبة فى العلم تتزايد بين الغربيين ونهضت الهمم لقطع سلاسل التقليد ونزعت العزائم الى تقييد سلطان زعماء الدين والاخذ على أيديهم فيما تجاوز وافيه وصاياه وحرفوا فى معناه ولم يكن بعد ذلك الا قليل من الزمن حتى ظهرت طائفة منهم تدعو الى الاصلاح والرجوع بالدين الى سذاجته وجاءت فى اصلاحها بما لا يبعد عن الاسلام الا قليلا بل ذهب بعض طوائف الاصلاح فى العقائد الى ما يتفق مع عقيدة الاسلام الا فى التصديق برسالة محمد صلى الله عليه وسلم وأن ما هم عليه انما هو دينه يختلف عنه اسما ولا يختلف معنى الا فى صورة العبادة لا غير

ثم أخذت أمم أوربا تفتك من أسرها وتصلح من شؤنها حتى استقامت أمور دنياها على مثل ما دعا اليه الاسلام غافلة عن قائدها لاهية عن مرشدها وتقررت أصول المدنية الحاضرة التى تفاخر بها الاجيال

المتأخرة ماسبقها من أهل الازمان الغابرة هذا طل من وابله أصاب أرضا قابلة فاهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج جاء القوم ليبيدوا فأستفادوا وعادوا ليفيدوا ظن الرؤساء أن فى إهاجة شعوبهم شفاء ضغنهم وتقوية ركنهم فباؤا بوضوح شأنهم وضعضعة سلطانهم وما بيناه فى شأن الاسلام ويعرفه كل من تفقه فيه قد ظفر به كثير من أهل النظر فى بلاد الغرب فعرفوا له حقه واعترفوا أنه كان أكبر أساتذتهم فيما هم فيه اليوم والى الله عاقبة الأمور

ايراد سهل الايراد

يقول قائلون اذا كان الاسلام انما جاء لدعوة المختلفين الى الاتفاق وقال كتابه «ان الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعا لست منهم فى شئ» فما بال الملة الاسلامية تمزقتها المشارب وفرقت بين طوائفها المذاهب اذا كان الاسلام موحدا فما بال المسلمين عددوا اذا كان موليا وجه العبد وجهة الذى خلق السموات والارض فما بال جمهورهم يولون وجوههم من لا يملك لنفسه نفعا ولا ضرا ولا يستطيع من دون الله خيرا ولا شرا وكادوا يجعلون ذلك فصلا من فصول التوحيد اذا كان أول دين خاطب العقل ودعاه الى النظر فى الاكوان وأطلق له العنان يجول فى ميادينها بما يسعه الامكان ولم يشرط عليه فى ذلك سوى المحافظة على عقد الايمان فما بالهم قنعوا باليسير وكثير منهم أغلق على نفسه باب العلم ظنا منه أنه قد يرضى الله بالجهل واغفال النظر فيما أبدع من محكم الصنع ما بالهم وقد كانوا رسل المحبة أصبحوا اليوم وهم يتنسمونها ولا يجدونها ما بالهم

بعد أن كانوا قدوة في الجد والعمل أصبحوا مثلا في القعود والكسل ما هذا الذي ألحق المسلمون بدينهم وكتاب الله بينهم يقيم ميزان القسط بين ما يدعوه وبين ما دعاهم اليه فتركوه اذا كان الاسلام في قربه من العقول والقلوب على ما بينت فما باله اليوم على رأى القوم تقصر دون الوصول اليه يد المتناول اذا كان الاسلام يدعو الى البصيرة فيه فما بال قراء القرآن لا يقرؤنه الا تغنيا ورجال العلم بالدين لا يعرفه أغلبهم الا تظنيا * اذا كان الاسلام منح العقل والارادة شرف الاستقلال فما بالهم شدّوهما الى أغلال أى أغلال اذا كان قد أقام قواعد العدل فما بال أغلب حكامهم يضرب بهم المثل في الظلم اذا كان الدين في تشوف الى حرية الارقاء فما بالهم قضوا قرونا في استعباد الاحرار اذا كان الاسلام يعد من أركانه حفظ العهود والصدق والوفاء فما بالهم قد فاض بينهم الغدر والكذب والزور والافتراء اذا كان الاسلام يحظر الغيلة ويحرم الخديعة ويوعد على الغش بان الغاش ليس من أهله فما بالهم يحتالون حتى على الله وشرعه وأوليائه اذا كان قد حرم الفواحش ما ظهر منها وما بطن فما هذا الذي نراه بينهم في السر والعلن والنفس والبدن اذا كان قد صرح بان الدين النصيحة لله ولرسوله وللمؤمنين خاصتهم وعامتهم وان الانسان لفي خسر الا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر وأنهم ان لم يأمروا بالمعروف وينهوا عن المنكر سلط عليهم شرارهم فيدعو خيارهم فلا يستجاب لهم وشدد في ذلك بما لم يشدد في غيره فما بالهم لا يتناصحون ولا يتواصون بحق ولا يعتصمون بصبر ولا يتناصحون في خير ولا شر بل ترك كل صاحبه

وألقى حبله على غاربه فعاشوا أفذاذا وصاروا فى أعمالهم أفرادا لا يحس أحدهم بما يكون من عمل أخيه كأنه ليس منه وكأن لم تجمعه معه صلة ولم تضمه اليه وشيجة ما بال الابناء يقتلون الآباء وما بال البنات يعققن الامهات أين وشائج الرحمة أين عاطفة الرحم على القريب أين الحق الذى فرض فى أموال الاغنياء للفقراء وقد أصبح الاغنياء يسلبون ما بقى فى أيدى أهل البأساء

قبس من الاسلام أضاء الغرب كما تقول وضوءه الاعظم وشمسه الكبرى فى الشرق وأهله فى ظلمات لا يبصرون أصح هذا فى عقل أو عهد فى نقل ألم تر الى الذين تذوقوا من العلم شيأ وهم من أهل هذا الدين أول ما يعلق بأوهام أكثرهم ان عقائده خرافات وقواعده وأحكامه ترهات ويجدون لذتهم فى التشبه بالمستهزئين ممن سموا أنفسهم أحرار الافكار وبعداء الانظار والى الذين قصروا هممهم على تصفح أوراق من كتبه وسموا أنفسهم بأنهم حفاظ أحكامه والقوام على شرائعه كيف يجافون علوم النظر ويهزؤن بها ويرون العمل فيها عبثا فى الدين والدنيا ويفتخر الكثير منهم بجهلها كأنه فى ذلك قد هجر منكرا وترفع عن دنيئة فمن وقف على باب العلم من المسلمين يجد دينه كالثوب الخلق يستحى أن يظهر به بين الناس ومن غرته نفسه بأنه على شئ من الدين وأنه مستمسك بعقائده يرى العقل جنة والعلم ظنة أليس فى هذا ما يشهد الله وملائكته والناس أجمعين على أن لا وفاق بين العلم والعقل وهذا الدين

الجـــواب

ربما بالغ الواصف لما عليه المسلمون اليوم بل من عدة أجيال وربما

كان ما جاء في الايراد قليلا من كثير وقد وصف الشيخ الغزالي رحمه الله وابن الحاج وغيرهما من أهل البصر في الدين ما كان عليه مسلمو زمانهم عامتهم وخاصتهم بما حوته مجلدات ولكن قد أتيت في خاصة الدين الاسلامي بما يكفي للاعتراف به بمجرد تلاوة القرآن مع التدقيق في فهم معانيه وحملها على ما فهمه أولئك الذين أنزل فيهم وعمل به بينهم ويكفي في الاعتراف بما ذكرته من جميل أثره قراءة ورقات في التاريخ على ما كتبه محققو الاسلام ومنصفو سائر الامم فذلك هو الاسلام وقد أسلفنا أن الدين هدى وعقل من أحسن في استعماله والاخذ بما أرشد اليه نال من السعادة ما وعد الله على اتباعه وقد جرب علاج الاجتماع الانساني بهذا الدواء فظهر نجاحه ظهورا لا يستطيع معه الاعمى انكارا ولا الاصم إعراضا وغاية ما قيل في الايراد ان أعطى الطبيب الى المريض دواء فصح المريض وانقلب الطبيب بالمرض الذي كان يعمل لمعالجته وهو يتجرع الغصص من آلامه والدواء في بيته وهو لا يتناوله وكثير ممن يعودونه أو يتشفون منه ويشمتون لمصيبته يتناولون من ذلك الدواء فيعافون من [illegible]ل مرضه وهو في يأس من حياته ينتظر الموت أو تبدّل [illegible] الله في شفاء أمثاله كلامنا اليوم في الدين الاسلامي وحاله على ما بينا أما المسلمون وقد أصبحوا بسيرهم حجة على دينهم فلا كلام لنا فيهم الآن وسيكون الكلام عنهم في كتاب آخر ان شاء الله

التصديق بما جاء به محمد صلى الله عليه وسلم

بعد أن ثبتت نبوته عليه السلام بالدليل القاطع على ما بينا وأنه انما يخبر

عن

عن الله تعالى فلا ريب أنه يجب تصديق خبره والايمان بما جاء به ونعنى بما جاء به ما صرح به فى الكتاب العزيز وما تواتر الخبر به تواترا صحيحا مستوفيا لشرائطه وهو ما أخبر به جماعة يستحيل تواطؤهم على الكذب عادة فى أمر محسوس ومن ذلك أحوال ما بعد الموت من بعث ونعيم فى جنة وعذاب فى نار وحساب على حسنات وسيئات وغير ذلك مما هو معروف ويجب أن يقتصر فى الاعتقاد على ما هو صريح فى الخبر ولا تجوز الزيادة على ما هو قطعى بظنى وشرط صحة الاعتقاد أن لا يكون فيه شىء يمس التنزيه وعلو المقام الالهى عن مشابهة المخلوقين فان ورد ما يوهم ظاهره ذلك فى المتواتر وجب صرفه عن الظاهر إما بتسليم لله فى العلم بمعناه مع اعتقاد أن الظاهر غير مراد أو بتأويل تقوم عليه القرائن المقبولة

أما أخبار الآحاد فانما يجب الايمان بما ورد فيها على من بلغته وصدق بصحة روايتها أما من لم يبلغه الخبر أو بلغه وعرضت له شبهة فى صحته وهو ليس من المتواتر فلا يطعن فى ايمانه عدم التصديق به والاصل فى جميع ذلك أن من أنكر شيأ وهو يعلم أن النبى صلى الله عليه وسلم حدث به أو قرره فقد طعن فى صدق الرسالة وكذب بها ويلحق به من أهمل فى العلم بما تواتر وعلم أنه من الدين بالضرورة وهو ما فى الكتاب وقليل من السنة فى العمل

من اعتقد بالكتاب العزيز وبما فيه من الشرائع العملية وعسر عليه فهم أخبار الغيب على ما هى فى ظاهر القول وذهب بعقله الى تأويلها بحقائق يقوم له الدليل عليها مع الاعتقاد بحياة بعد الموت وثواب وعقاب على الاعمال والعقائد بحيث لا ينقص تأويله شيأ من قيمة الوعد

والوعيد ولا ينقض شيأ من بناء الشريعة فى التكليف كان مؤمنا حقا وان كان لا يصح اتخاذه قدوة فى تأويله فان الشرائع الالهية قد نظر فيها الى ماتبلغه طاقة العامة لا الى ما تشتهيه عقول الخاصة والاصل فى ذلك أن الايمان هو اليقين فى الاعتقاد بالله ورسله واليوم الآخر بلا قيد فى ذلك إلا احترام ما جاء على ألسنة الرسل

بقيت علينا مسئلتان وضعتا من هذا العلم فى مكان من الاهتمام وما هما منه إلا حيث يكون غيرهما مما أجملنا القول فيه الاولى جواز رؤية الله تعالى فى الآخرة والاخرى جواز وقوع الكرامات وخوارق العادات من غير الانبياء من الاولياء والصديقين

أما الاولى فقد اشتد فيها النزاع ثم انتهى الى وفاق بين المنزهين لا مجال معه للتنازع فان القائلين بجواز الرؤية من أهل التنزيه متفقون على أن الرؤية لا تكون على المعهود من رؤية البصر المعروفة لنا فى مجرى العادة بل هى رؤية لا كيف فيها ولا تحديد ومثلها الا يكون الا ببصر يختص الله به أهل الدار الآخرة أو تتغير فيه خاصته المعهودة فى الحياة الدنيا وهو ما لا يمكننا معرفته وان كنا نصدق بوقوعه متى صح الخبر والمنكرون لجوازها لم ينكروا انكشافا يساويها فسواء كان ذلك بالبصر الغير المعهود أو بحاسة أخرى فهو فى المعنى يرجع الى قول خصومهم ولكن منى الاسلام بقوم يحبون الخلاف والله فوق ما يظنون

أما الثانية فانكر جواز وقوع الكرامات أبو اسحق الاسفراينى من أكابر أصحاب أبى الحسن الاشعرى وعلى ذلك المعتزلة الا أبا الحسين البصرى فقال بجواز وقوعها وعليه جمهور الاشاعرة واستدل الذاهبون الى

الجواز بما جاء فى الكتاب من قصة الذى عنده علم من الكتاب الواردة فى
خبر بلقيس من إحضاره عرشها قبل ارتداد الطرف وقصة مريم عليها
السلام وحضور الرزق عندها وقصة أصحاب الكهف واحتج الآخرون
بأن ذلك يوقع الشبهة فى المعجزات وأولوا ما جاء فى الآيات أما أن ذلك يوقع
الشبهة فى المعجزات فليس بصحيح لان المعجزات انما تظهر مقرونة بدعوى
الرسالة والتبليغ عن الله تعالى ولا بد أن تكتنفها حوادث تميزها عما
سواها واما ما احتج به المجوزون من الآيات فلا دليل فيه لان ما فى قصة
مريم وآصف قد يكون بتخصيص من الله تعالى لوقوعه فى عهد الانبياء
عليهم الصلاة والسلام ولا علم لنا بما اكتنف تلك الوقائع من شؤن الله
فى أنبياء ذلك العهد الا قليلا وأما قصة أهل الكهف فقد عدها الله
من آياته فى خلقه وذكرها بالنعت بمظاهر قدرته فليست من قبيل
ما الكلام فيه من عموم الجواز فبقى البحث فى جواز وقوع الكرامات
نوعا من البحث فى متناول همم النفوس البشرية وعلاقتها بالكون الكبير
وفى مكان الاعمال الصالحة وارتقاء النفوس فى مقامات الكمال من العناية
الالهية وهو بحث دقيق قد يختص بعلم آخر أما مجرد الجواز العقلى وان
صدور خارق للعادة على يد غير نبى مما تتناوله القدرة الالهية فلا أظن أنه
موضع نزاع يختلف عليه العقلاء وانما الذى يجب الالتفات اليه هو
أن أهل السنة وغيرهم فى اتفاق على أنه لا يجب الاعتقاد بوقوع كرامة
معينة على يد ولى لله معين بعد ظهور الاسلام فيجوز لكل مسلم باجماع
الامة أن ينكر صدور أى كرامة كانت من أى ولى كان ولا يكون
بانكاره هذا مخالفا لشئ من أصول الدين ولا ماثلا عن سنة صحيحة

ولامنحرفا عن الصراط المستقيم أين هذا الاصل المجمع عليه مما يهذى به جمهور المسلمين فى هذه الايام حيث يظنون أن الكرامات وخوارق العادات أصبحت من ضروب الصناعات يتنافس فيها الاولياء وتتفاخر فيها هممم الاصفياء وهو مما يتبرأ منه الله ودينه وأولياؤه وأهل العلم أجمعون

خاتمة

﴿بسم الله الرحمن الرحيم﴾

«وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم فى الارض كما استخلف الذين من قبلهم وليمكنن لهم دينهم الذى ارتضى لهم وليبدلنهم من بعد خوفهم أمنا يعبدوننى لا يشركون بى شيأ ومن كفر بعد ذلك فاولئك هم الفاسقون» وقد فسر الكفر فى هذه الآية بكفر النعمة «وأنا لما سمعنا الهدى آمنا به فمن يؤمن بربه فلا يخاف بخسا ولا رهقا وأنا منا المسلمون ومنا القاسطون فمن أسلم فأولئك تحروا رشدا وأما القاسطون فكانوا لجهنم حطبا وأن لو استقاموا على الطريقة لأسقيناهم ماء غدقا لنفتنهم فيه ومن يعرض عن ذكر ربه يسلكه عذابا صعدا وأن المساجد لله فلا تدعوا مع الله أحدا وأنه لما قام عبد الله يدعوه كادوا يكونون عليه لبدا قل إنما أدعو ربى ولا أشرك به أحدا قل انى لا أملك لكم ضرا ولا رشدا قل إنى لن يجيرنى من الله أحد ولن أجد من دونه ملتحدا الا بلاغا من الله ورسالاته ومن يعص الله ورسوله فان له نار جهنم خالدين فيها أبدا حتى اذا رأوا ما يوعدون

فسيعلمون

فسيعلمون من أضعف ناصرا وأقل عددا قل ان أدرى أقريب ماتوعدون أم يجعل له ربى أمدا عالم الغيب فلا يظهر على غيبه أحدا الامن ارتضى من رسول فانه يسلك من بين يديه ومن خلفه رصدا ليعلم أن قد أبلغوا رسالات ربهم وأحاط بمالديهم وأحصى كل شئ عددا »
صدق الله العظيم وبلغ رسوله الكريم وخسئ الشيطان الرجيم وحق الشكر لله رب العالمين الرحمن الرحيم

﴿ تمت الرسالة ﴾

(يقول المتوسل بجاه المصطفى خادم التصحيح بدار الطباعة محمود مصطفى)

الحمد لله المنفرد بالايجاد الحكيم الذى أبدع ماخلقه وأجاد الموصوف سبحانه بصفات التأثير ولامعقب له المنزه جل جلاله عن المماثلة والمشاكله والصلاة والسلام على سيدنا محمد المفحم بمحاسن حججه المكابرين وعلى آله وأصحابه الذين قاموا بنصرة الدين (أما بعد) فقد وفق الله حضرة العالم العلامه الحبر البحر الفهامه محرر مباحث العلوم بجليل تحقيقاته ومنور حوالك المشكلات بجميل تدقيقاته ذى القدر الخطير الاستاذ الكبير الشيخ محمد عبده حفظه الله ورفع فى الخافقين ذكره وعلاه الى تأليف كتاب فى فن التوحيد هو فى بابه ولا غرو فريد ألطف من النسيم وأعذب من التسنيم ترى أرج التحقيق منه عابقا وبدر التمييق فى منازله شارقا جمع فيه من نفائس قواعد هذا الفن ومحكم مباحثه الغريبه على وجه حسن مايبلغ به طالبه

غاية مطلوبه ويصل بمراغبه الى منتهى مرغوبه ولما بدا هذا الكتاب للعيان وكان بحسن بيانه رفيع الشان بادر الى طبعه لعموم نفعه الهمام الامجد ذى الخلق المستطاب حضرة السيد عمر الخشاب فى المطبعة الزاهرة ببولاق مصر القاهره فى ظل الحضرة الفخيمة الخديوية وعهد الطلعة الميمونة الداورية من بلغت به رعيته غاية الأمانى أفندينا المعظم (عباس باشا حلمى الثانى) أدام الله أيامه ووالى على رعيته إنعامه ملحوظا هذا الطبع الجميل على هذا الشكل الجليل بنظر من عليه أخلاقه تثنى حضرة وكيل المطبعة الاميرية محمد بك حسنى فى أوائل شهر محرم الحرام سنة ست عشرة بعد ثلثمائة وألف من هجرة من خلقه الله على أكمل وصف صلى الله عليه وسلم وعلى آله وصحبه وشرف وكرم